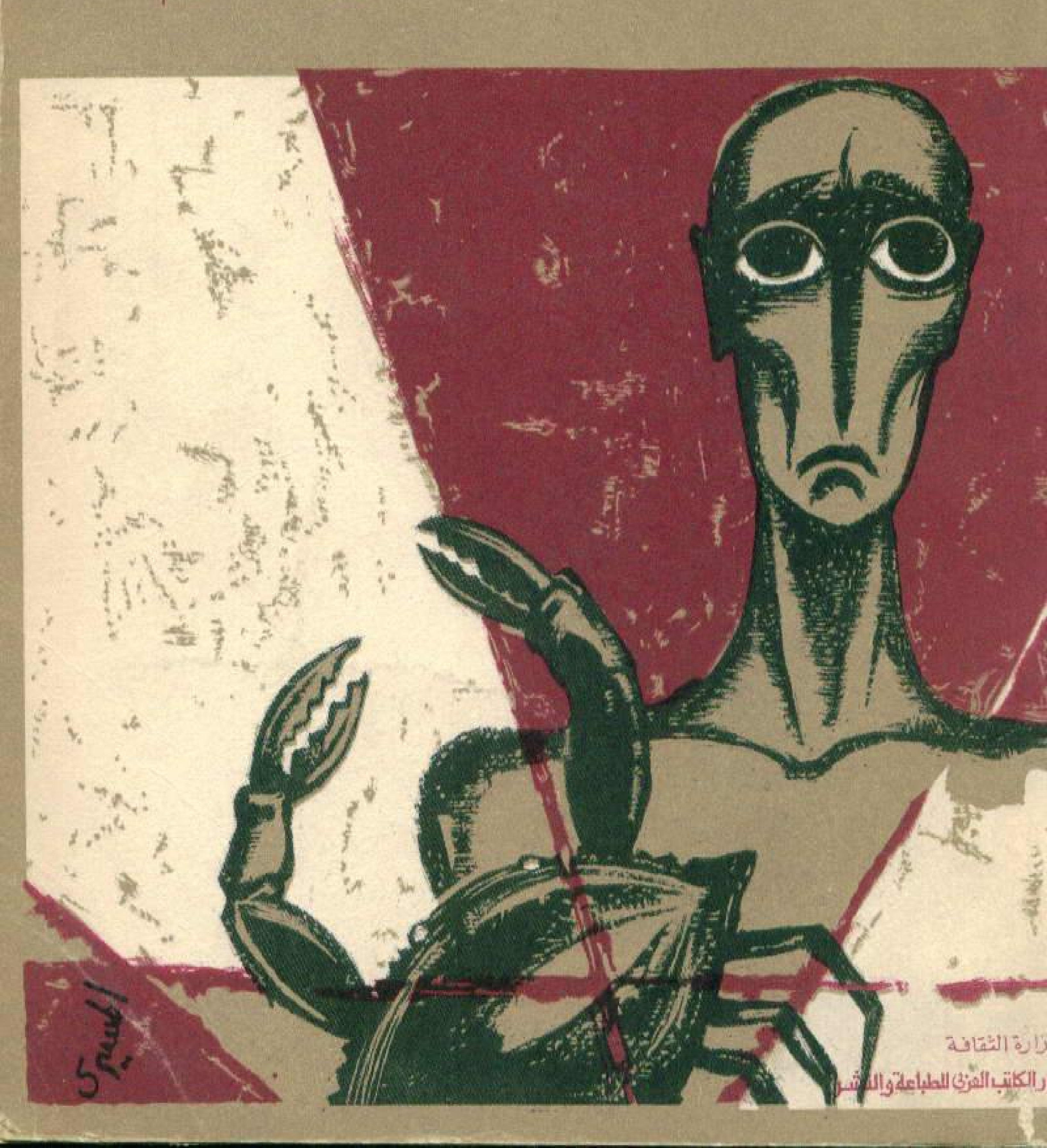
من أدب أمريكا اللاتينية

الناس والسلاطين

رواية برازيلية

بقلم : جوزويه دي كاسترو

ترجمة : نزيه الحكيم



جوزويه دى كاسترو

الناسُ والسراطين

رواية برازيلية

ترجمة : نزيه الحكيم

ماذا يعنى الأدب فى عالم جـــائع ؟ ان الأدب ، كالأخلاق ، فى حاجة الى الشمول الانسانى . ولذلك ينبغى للكاتب أن يقف فى صف العـــدد الأكبر من مليـــارى الجائعين ، اذا أراد أن يملك القـدرة على التوجه الى الجميع وأن يقراه الجميع .

(جان بول سارتر)

انك تعلم أن الانسانية ، بعد عصور ستنقضى ، لا بد لها أن تعلن - بلسان المعرفة والعلم - أن لا وجود للجريمة ، وبالتالى لا وجود للخطيئة ، وأن ليس هناك الا الجوع .

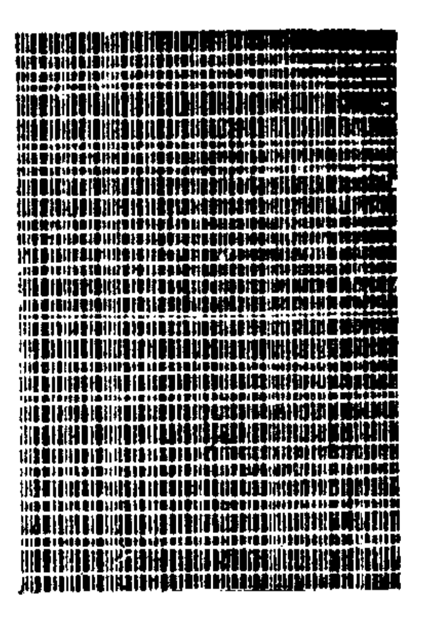
(فيدور دوستويفسكى)

فى كل مطعم كان يستقبلنى جوع ، وأمام كل نبعة عطش ، عطش فى كل مرة جديد .

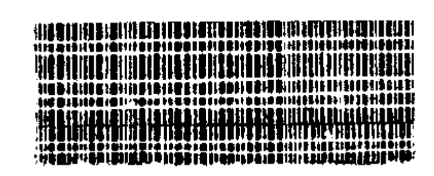
(اندره جيد)

البطن هو الأســاس المـكين . والمطلب الأول هو الخبز والنبيذ وقطعة اللحم . وليس الا الخبز والنبيذ واللحم من سبيل الى خلق السماء .

(نيكوس كازنتزاكى)



مقــــدمة



فى تلك الأراضى الفقـــيرة من شمال شرقى البرازيل ، حيث ولدت ، تعود النـــاس أن يكون طعامهم اليومى قطعـة هزيلة من اللحم الجاف ، بالغـــة الصغر ، ضائعة وسط طبق كبير من « المانيوكا »(١) ، كل مهمتها أن تعطى بعض الطعم لهذا الجبـــل من عجين الدقيق المغموس بالماء الساخن • ولعل بقية من هـذه العادة القديمة هى التى جعلتنى أقرر أن أقدم لقارىء هذا الكتاب كثيرا من دقيق « المانيوكا » الى جانب قليل من اللحم •

ذلك أن القصة التى سأرويها هنا قصـة هزيلة ، جافة ، فعسى هذه المقـدمة التفسيرية أن تسمن الكتاب وأن تخدع جوع القارىء وتدارى نهمه الى الرواية • بل لعلنى ـ وروايتى الهزيلة بطلها الرئيسى هو الجوع نفسه ـ لم أندفع الى التقديم لها بهذا الاستهلال الدسم الا رغبة بتصعيد العقدة التى يعانيها شعب كامل من الجياع ، لا يألو مهموما باخفاء سغبه عن أعين الناس • فهى اذن وثيقة وشـــهادة أكثر منها رواية ، تلك التى يطالعك بها هذا الكتاب ، اذ ليس فيها من « الأدب » الا القـدر الذى أستطيع به جعل لسانك يستشعر حدة مذاق المأســـاة التى عاشتها طفولتى ، والتى أصبحت منذ ذلك الحين لباب انتاجى كله •

سأروى لك اذن حكاية طفل فقير ، فتح عينيه على العالم وسط منظر ليس أكثر من لسان بحر كبير ، لسان بحر من البؤس يمتد جسده حتى يشمل قارة بأسرها • وسأروى لك كيف اكتشفت الجوع ، فى مستنقعات مدينة « ريسيف » ، بين الغرقى فى

(١) جذر من نبات المناطق الحارة ، شبيه بالذرة ، يطحنونه ويعجنون دقيقه • **(المترجم)**

ذلك البحر . فظاهرة الجوع لم أتعلم وجودها في « السوربون » ولا في أية جامعة أخرى ، بل في سباخ نهر « الكابيباريبي » وفي أحياء « ريسيف » الأكثر حرمانا ومسغبة : « آفوغادوس » و « بينا » و « سانتو آمارو » وجزيرة « ليتي » . هناك كانت جامعتي : في وحل المستنقعات الطافحة بالسراطين(١) والتي يسكنها بشر لحمهم من لحم السراطين ، ويفكرون ويشعرون كما تفعل السراطين ؛ فهم كائنات « برمائية »، تسكن الأرض والماء ، أنصاف بشر وأنصاف حيوان ، كان غذاء طفولتهم مرق السرطان المغلي ، هذا اللبن المحلوب من أثداء الوحل ، فهم بذلك أخوة للسراطين بالرضاع ، شربوا معها لبن الوحل ، وتعلموا معها كيف يدبون ويمشون ، وتلطخت وجوههم بحمأ المستنقعات واصبحت لأجسادهم رائحة التراب العفن والماء الآسن ، حتى امسوا لا يملكون تحررا من قشرة الطين ، تلك التي تجعلهم واخوتهم السراطين سواء .

من أجل هذا ، ما أن يغطس سكان المستنقعات يوم مولدهم في الطمي اللزج من حول أشجار « المانجريف »(٢) حتى يغدو من العسير جدا عليهم أن يتخلصوا من دورة حياة السرطان : لا يكادون يستطيعون ذلك الا بالموت ، أو حتى بالموت ...

ولقد وعيت منذ طفولتي المبكرة هذا الانسجام البيئي الغريب بين الانسان وبين السراطين التي يحاكيها في كل شيء : يدب مثلها كفاحا من أجل البقاء ، ويقف مثلها الى جانب الماء ، ويمشي مثلها الى وراء ... وكنت أيضا أشعر أن أهل المستنقعات – بشرا وسراطين – كانوا يزدادون انغمارا بالوحل بمقدار ما يكبرون ويشيخون . فكأن أشجار «المانجريف» ، بنموها الوافر الأثيث ، وبجذوعها الملتوية كأنما تتضور عذابا ، وبفروعها المتداخلة الخشنة ، وبجذورها العميقة المتلبدة في شبكة كثيفة ، قد استولت عليهم الى الأبد ، وكأنما هي أخطبوط يمد اليهم أذرعة لا ترى ، تجتذبهم أبعد فأبعد ، من أعينهم وأفواههم وآذانهم ومن كل مسام جلدهم ، فيستحيرون في وسط السباخ تشدهم اليها – كما يفعل العلق – أشجار «المانجريف»

---

(١) السرطان هنا هو حيوان البحر القشري المعروف في مصر باسم « الكابوريا » أو « أبو جلمبو » ، وبالتالي لا علاقة له بمرض السرطان في مصطلحنا الدارج . (**المترجم**)

(٢) نوع من الشجر الاستوائي الضخم لم يعرفه العرب ولا وضعوا له تسمية . ولذلك فضلت أن أستخدم له هنا هذه التسمية الانكليزية ، التي يعرفه بها علماء النبات . (**المترجم**)

التى لا ترتوى ، ممتصة عصارة شبابهم وأرواحهم وجاعلة منهم عبيــدا أرقاء ، بيدها حياتهم التى استولت عليها استيلاء بطيئا ، عنيدا ، ونهائيا • لقـد كانت هذه الأشجار العجيبة الشـكل ، فى عصور « جيولوجية » ماضية ، احتلت هـذه المنطقة ـ هذه الحفـرة السبخة التى تنتصب فيها اليوم مدينة « ريسيف » ـ ، وهاهى ذى اليـوم تمد سلطانها على سكانها ، فكل ما فيها الآن ملك لها : بشرا وأرضا وحيوانات •

والواقع أن أشـجار « المانجريف » كانت أول غزاة هـذه الأرض ، بل هى خالقتها الى مدى بعيد • ففى البداية ، كان هذا السهل الفسيح الخفيض ، المؤلف من جزر وأشباه جزر وغياط وسباخ ، خليجا دائرويا متدرجا تحف به الهضاب • وجاء نهران عظيمان ، هما « الكابيباريبى » و « البيبيريبى » ، فاخترقا سد الهضاب هذا وأخذا يصبان فى الحفرة ويملآنها بما تحمله أمواجهما من غرين وتراب ، أتيا به من مناطق بعيدة • وبدأت تظهر تدريجيا تيجـان صغيرة من الطين ، تشكلت بتراكم المواد التى حملهـا النهران • وعلى هذه الأكوام التى كانت ماتزال غـير مستقرة ، على هـذا الخليط السائب من المـاء والتراب ، بدأت تتكاثر أشــجار « المانجريف » ، هذه النباتات الغريبة التى لا تضيق بملوحة الماء ولا بهشاشة الأرض التى لا تنفك تغمرها السيول • وكما يفعل الحيوان اذ يشرف على التهلكة فيطلب أسباب النجاة بأظافره وأسنانه ، أخذت هذه الأشجار تمد عميقا فى الطين جذورها الحادة كالمخالب ، وتستند بعضها الى بعض لتقاوم جامح المد وعنيف الأعاصير ، ثم شابكت تدريجيا ما بين جذورها وفروعها ترص بعضها ببعض ، وبذلك استطاعت هى الحياة وفى الوقت نفسه منحت الثبات والاستقرار لتيجان الطين السائبة •

وعلى قدر ما كان الغرين يتراكم فى فرج الجذور المتعاقدة ، أخذ مسـتوى الأراضى الطافية يعلو وأخذت رقعتها تتسع ، فى حمى النبات المتكاثف •

هى اذن من صنع أشجار « المانجريف » كل هذه الأرض المنبسطة على مستوى الماء والتى كانت خليجا فأصبحت الآن مدينة • لقد جاءت هذه الأشجار مع السيول المثقلة بالطمى ، فابتنت أرضها بجهدها الدائب ، بكفاحها العنيد ضد البحـــر • جاءت محتلة غازية ، كما تأتى الجيوش ، وحين التقت بالبحر أخذت تعمر فى صبر هذا السـهل الغرينى الفسيح ، الذى يتخلله اليوم الكثير من ألسنة الأنهـار ، ويتراص فيه شعبنا ، شعب الناس والسراطين •

لا ينبغى أن يسـتغرب اذن ، وأشجار « المـانجريف » حققت هذا الصـنيع المعجز ، أن السكان قد ألهوها ، فهم لا يجدون تفسيرا لقدرة شجرة على أن تأتى

مثل هذا الأمر العجيب : خلق أرض جديدة • هذا وهم لا يزالون الى اليــــوم يشهدون ارتفـاع تيجان جديدة من الطين ، ويرونها تتحول جـزرا خضراء ثرية الحياة • ومن حول جزرهم الـكبيرة ، يدهشهم أن يروا جزيرات أخــرى صغيرة ، كأنما الأرض ، لسر معجز ، تتوالد من نفسها فى ظلال تلك الأشجار •

ولقد ولدت فى « ريسيف » ، هذه المدينة التى أسسها الهولانديون فـوق المستنقعات منذ أكثر من ثلاثة قرون ، فاذا هى اليوم من بعض جوانبها « هونكونغ » أمريكية ، بتعاستها الطاغية المتكدسة فوق مجموعة من الجزر العائمة ، الغافيــة ، بين ذراعى « الكابيباريبى » و « البيبيريبى » • وقد بدأت أول ما بدأت بالتعرف الى مجتمع السراطين ، ثم الى مجتمع أهل السباخ ، اخوة السراطين فى الرضاع • ثم لم أحظ بمعرفة انسانيــة أخرى الا بعد حقبة جـد طويلة • على أن واجب الصراحة يقتضيني الاعتراف بأني ـ بعد كل ما شهدته وتعلمته فى العالم الواسع ـ ما أزال أخص بأكثر حنــانى مجتمع المستنقعات ، مجتمع الأخوة الرضعاء ، أبنـاء الطين ، مجتمع الناس والسراطين •

وحكاية هذا المجتمع هى ما أريد روايته • انه مجتمع « بر مائى » من وجهـة النظر الاقتصادية أيضا ، اذ أنه ما يزال راكدا على هامش النظامين الاجتماعيين اللذين لم يستطع التاريخ حتى الآن أن يوحد بينهما كاللحمة والسدى فى نسيج واحد : الاقطاعية الزراعية والرأسمالية • فهاتان البنيتان لا تزالان تتعايشان فى شمال شرقى البرازيل ، جنبــا الى جنب ، دون أن تتمازجا وأن تتحـدا فى طراز حضارى فرد • وهكذا تجد جماعة الجزر نفسها محصورة بين نظامين يسحقها كلاهما، فلا تملك الا أن تغور فى قعر السباخ ممتزجة بطينها اللزج •

كانت ولادتى ـ وكنت بذلك بالغ الزهو ـ فى شارع يحمل اسم البطل الشهير « جواكيم نابوكو » ، زعيم حركة تحرير العبيد فى أيام الامبراطورية :

« أنا أيضا ولدت فى هذه الأرض ،

التى تسفعها الشمس وتنصل نضرتها ،

أرض « جواكيم نابوكو » ،

الرجل الشهم الصدوق

الذى كان كثير الاختلاف

عن مقلدى « نابوكو » اليوم »(١) •

ونشأت فى مواحل مستنقعات « الكابيباريبى » ، الذى كانت مياهه تبـدو لعينى الطفلتين الفضوليتين وكأنها تروى باستمرار حكايتها الطويلة المتكررة ، حكاية مغامراتها التى لا عد لها خلال مختلف مناطق الشمال الشرقى : فى فلاة « السرتون »(٢) الوحفاء ، التى فيها ولد أبى ومنها هاجر مع كل أسرته يوم نزل بها الجفاف عام ١٨٧٧ ؛ وفى منطقة الغابات حيث الأراضى الخصبة وحقول قصب السكر التى ولدت فيها أمى ، من أب كان صاحب مصفاة للسكر • وبعد بحر الرماد فى « السرتون » وبحر الخضرة فى المزارع ، يأتى بحر الطين فى سباخنا ، قبل أن نصل الى البحر الحقيقى ، ذلك الذى لا تروى الحكاية شيئا عنه • وكنت أقضى الساعة بعد الساعة جالسا على الرصيف ، أشهد جريان المياه فى النهر بمثل انتباهى لو عرض امامى « فيلم » على الشاشة •

هكذا كان « الكابيباريبى » معلمى الأول لتاريخ الشمال الشرقى ، هذه الأرض التى تكاد تكون بلا تاريخ ، والتى علمتنى عيناى عنها أكثر كثيرا مما تعلمت بأذنى • ومع ذلك فان تلك الصور التى بها دخل التاريخ عينى الذاهلتين لم تكن كلها جلية ولا زاهية •

وكان المنزل الذى ولدت فيه الى جانب بركة ملأى بالأسماك وبالسراطين ، وبقشريات أخرى شبيهة بالسراطين يسمونها « السيريس » • ولئن كنت لم أولد فى البركة نفسها فانا لم أنتظر بلوغى السنتين لأسقط فيها ، اذ انزلقت مرة فى طين الحافة فلم يسحبونى منه الا نصف غريق • وبعد ذلك انتقلت عائلتى الى حى آخر أقرب الى النهر ، هو حى « المادلين » ، فأقمنا فى منزل قديم من الطراز « الاستعمارى » ، ذى دور واحد ، وله فى واجهته الأمامية ست نوافذ كبيرة • وكان هذا المنزل يبدو وكأنما أرهقه ثقله ذاته ، اذ كان أشبه بالحصن اقيم على مرتفع الشاطىء الذى كانت السراطين ، أيام الفيضان ، تصعد مدارجه حتى فناء

---

(١) للشاعر البرازيلى « جواكيم كاردوزو » فى ديوانه « العقيد ماكامبيرا » (١٩٦٣) •

(٢) « السرتون » Sertão ليست اسما علما ، ولكنها كلمة محلية خاصة بالبرازيل يطلقونها على الفلوات التى قد تصلح للمرعى ولكن تعز فيها الزراعة ، وتكون دائما بعيدة عن شاطىء البحر والأراضى الخصبة • ولذلك آثرت الاحتفاظ بلفظها على حاله • **(المترجم)**

الدار ، بل كانت أكثرها جرأة تغامر بالدخول الى غرف المنزل ، فاذا هو أشبه بجزيرة ، واذا حديقته أشبه بالبحر ؛ فاذا غيض الماء خلف وراءه طينا أسود يغطي كل شيء • وكانت واجهة المنزل تطـــل على النهر ، لأنه شيد في وقت كانت كل التنقلات فيه تتم بواسطة الزوارق ، ورجال الأعمال المعنيون بتجارة السكر يذهبون الى مكاتبهم بالقبعة العالية و « الردنجوت » ، بينما الفتيان السود بقامتهم العارية يجدفون ليدفعوا القارب في عكس اتجاه النهر •

وكانت الحديقة ملأى بالأشجار والحيوانات ، وثمار الموز وجوز الهند و «المانجو» فيها رائعـة • كما كانت رائعة أيضا ثمار الأشجار التي لم نكن نملك مثلهـا في حديقتنـا ومع ذلك نجدها فيها متناثرة على الأرض ، اذ كانت الخفافيش تتخطفهـا ليلا في حدائق الجيران ثم تنطلق هاربة فيسقط بعضها منها في حديقتنا ، كالجوافة وحب الآس و « الجامبو » • وصحيح أنها كانت جميعا نصف مقضومة ، ولكن هذا لم يكن يمنعني أن أذهب الى الحديقة كل صباح لأتلذذ بمذاقها • وكذلك كان لدينا بقر وخيول وماعز وخرفان ، وكانت عصافير من كل لون تشدو في أقفاص كبيرة معلقة هنا وهناك ، اذ كان أبي قد حمل معه الى « ريسيف » صورة حية من أرض مولده •

هكذا كنت أعيش في الحديقة وكأني في ولاية نائية داخل البلاد ، بينما كانت واجهة المنزل لا تحمل الى الا منظر السباخ الأسود • فاذا ما انحرفت بنظري قليلا الى اليمين فهنـاك أكداس الخرائب وأكواخ القش والطين ، متراكبـة بعضها فوق بعض ، في شبكة مستغلقة من الأزقة الضيقة • وكانت البيوت تصل حتى مستوى الماء ، فاذا جاء المد فهو كثيرا ما يغزوها ، وتغدو الشوارع مجرى للنهر ، ويغشى الطين كل شيء •

انطلاقا من هذه الصـــور بدأت أخلق عالم طفولتي ، وكل ما أراه يثير في الشعور بأني أمام اكتشاف حقيقي • وكان أكثر هذه الاكتشافات رهبة جوع شعب بكامله ، شعب يستعبده الجزع ويستبد به كابوس البحث عن طعامه • فلقد رأيت سراطين تزبد جوعا ، وتنتظـــــر على جرف النهر أن يحمل اليها التيار ما تأكل سمكة ميتة ، أو قشرة فاكهة ، أو بعضا من الروث ، تذهب به لتأكله في موضع جاف • ورأيت أناسا يجلســون على الرصيف القديم ، ويتهتهون بالـــكلمات القصار ، وفي فمهم عشبة يمتصونها ثم ينساب على ذقنهم لعاب ضارب الى الخضرة كان يبدو لي أنه وزبد السراطين من منشأ واحد : من جريض الجياع • ثم فهمت تدريجيا أن كل حياة هؤلاء الناس كانت تدور حول نفس تلك الفكرة الثابتــة

الواحدة • حتى لغتهم كانت لا تكاد تشير الا اليها ، وحتى تعابيرهم العامية كانت ملأى بالتشابيه المتصلة بالطعام • فاذا تحدثوا عن أى شيء فمعايير عسره أو يسره ، أو درجات الاغتباط به ، هى قولهم : « كالحساء » ، أو « كحبة الطماطم » ، أو « كقطعة من الجبن » ، أو « كرغيف ناضج » ••• وكأنما هذه الكلمات هى ما يغتذون به !

وكان الجوع الذى يستبد بهؤلاء الناس يحدد كل وجوه سلوكهم : قيمهم الأخلاقية ، وآمالهم ، وحتى حياتهم العاطفية • فاذا رأيتهم يعملون ويتحدثون ، ويتعذبون ويموتون ، فأنت ترى الجوع ذاته ، الجوع الطاغى الأبدى ، ينبوع أكبر مآسى الانسانية •

ولقد كنت فى البداية أحسب أن الجوع امتياز تعيس انفردت به منطقة المستنقعات التى كنت أعيش فيها ، ولكنى لم ألبث أن اكتشفت أن السباخ كانت أرضا موعودة حقيقية بالقياس الى بقية مناطق الشمال الشرقى ، وأنها كانت تجتذب سكان تلك المناطق التى كانت أشد ابتلاء بآفة الجوع ، كمنطقة الجدب فى « السرتون » ، ومنطقة القصب الأحادية الزراعة ، حيث تقوم صناعة السكر على اعتصار القصب واعتصار البشر على حد سواء ، فتحيلهم جميعا نفايات وحثالات •

ولقد تكونت لدى ثقافة كاملة عن الجوع باستماعى الى حكايات أبى التى لا تنتهى عن الأوضار التى نزلت بعائلتنا فى سنة ١٨٧٧ المجدبة • أما الجوع فى مناطق قصب السكر فمعلوماتى عنه أكثر دقة ، وقد اكتسبتها من عجوزين أسودين كانا فى شبابهما عبدين ، وكانا يسردان على ذكرياتهما وهما يحشان العشب لخيول أبى • وحتى حين كنت ، طلبا للتلهى ، أذهب الى السوق فأستمع الى المنشدين ، أو أحضر مشهد « رقصة الثور » الشعبى فى الساحة بين أكواخ القش والقصدير ، كان الجوع هو ما ألقاه فى وجهى باستمرار ، مغنيا أو راقصا ، وراء أقنعته المختلفة•

كان لاعبو « الجيتار » ينشدون :

ما أتعسها ، حياة الفلاح

على حافة السبخة الصفراء !

منذ عشرين عاما أعزق هذه الأرض

بحثا عن رغيف لا وجود له •

عشرين عاما من الآمال الكاذبة ،

وفى يدى نفس المنكاش ،

وأولادى أربعة عشر

عدا الذين أودعتهم القبر •

لذلك أمسكت ببندقيتى

كما كنت أمسك بالمنكاش ،

بالقوة التى يهبها الجوع

لمن يدافع عن لقمته(١) •

أما « رقصة الثور » فهى مشهد لثور طريف ، ذى قدمين فحسب ، لأنه انسان فى جلد ثور ، يتألم كما يتألم الانسان ، ويبكى ويثور • وكانت تاخذنى الشفقة على هذا الثور الأعجف ، الذى بلغ من هزاله أنه لم يكن الا رأسا فحسب، رأسا ليس فيه الا قرنان ، قرنان ضخمان يتأرجحان فى الهواء • انه لم يكن ثورا، بل كان مجرد ظل لثور • وعبثا كان راعيه يجس كل جانب من جوانبه ، فهو لم يعثر فى أية قطعة من جسمه على أى أثر للحم • تقول الأغنية :

بحثت فى رأسه ، ـ ايه ، «بومبا» !(١) ـ

فلم أجد ولا ذرة • ايه ، بومبا !

وبحثت فى أطرافه ، ـ ايه ، بومبا ! ـ

فلم أجد ولا عضلة • ايه ، بومبا !

وبحثت فى أضلاعه ، ـ ايه ، بومبا ! ـ

فلم أجد الا عظمها • ايه ، بومبا !

وبحثت فى أحشائه ، ـ ايه ، بومبا ! ـ

فوجدتها كلها خاوية • ايه ، بومبا !

---

(١) من شعر « آلفونسو رومانو دى سانتانا » فى ديوانه : « شمالا ، فى السبخة الصفراء » •

(٢) « بومبا » كلمة برتغالية صوتية تقابل « بم » فى عاميتنا • و « ايه ، بومبا ! » لازمة تقليدية يرددها الحضور مع المغنى فى « المارشات » البرازيلية المعروفة فى « الكرنفال » • **(المترجم)**

وبحثت فى عنقه ، ـ ايه ، بومبا ! ـ
فوجدتهغائرا كالحفرة · ايه ، بومبا !
وبحثت فى وركيه ، ـ ايه ، بومبا ! ـ
فلمأعثر فيهما علىشيء· ايه ، بومبا !
وبحثت فى كفله ، ـ ايه ، بومبا ! ـ
فغاصت يداى فيـه · ايه ، بومبا !

ولم تكن « رقصة الثور » هذه ، برتابة لحنها المفجع ، الا شكاة راع جائع : ثوره يكبر ويضخم ، ولكنها ضخامة أوهام ، لأن لحمه يبدو كأنما يذوب بمجرد أن تلامسه يداه ·

هكذا تعلمت أن الجوع لم يكن ابن المستنقعات فحسب ، بل أن هذه المستنقعات كانت ـ على العكس ـ ملاذا لأناس أكثر جـــوعا فى بقية الشمال الشرقى كله ، يفدون أفواجا الى هذا الوكر المبنى على الطين ، والذى تزدهر فيه دورة السراطـين المعجزة · ولقد شببت ، وطفت بالعالم ، وعرفت بلدانا أخرى ، فاذا أنا أدرك فى دهشة أن ما كنت أحسبه ظاهرة موضعية فحسب ، ومعضلة فى شارعى وحده ، كان مأساة على مدى العالم ·

هذه المأساة العالمية ، سبق لى أن تحدثت عنها فى دراسات أدنى الى الطـابع العلمى ، هى تحليلات « بيولوجية » أو اجتماعية اقتصادية للمشكلة ·

أما اليوم فهذه قصة لقائى الأول مع الجوع فى سباخ « الكابيباريبى » ، حيث لم يتغير بعد الا القليل منذ طفولتى · ففى هذه الأراضى التاعسة ، لا يكاد كر الأيام أن يدخل فى الحساب · والأموات وحدهم هم الذين لم يعودوا يموتون جوعا ·

الناسُ والسراطين

١

« ريسيف » ، مدينة الأنهار والجسور والمنازل القديمة ، هى أيضا مدينة المستنقعات ، ومدينة الأخصائص وأكواخ اللبن المضروب المملوطة باليد والمغشاة بالتبن والقش والقصدير . وفجر « يونيه » البارد مايزال فى دكنة الليل ، ولكن نسمة خفيفة بدأت بالهبوب بينما الضاحية فى غفوتها ، تحفها سكينة السباخ فلا يرتفع بين الحين والحين الا صوت جدجد من أحد الأكواخ تجيبه الضفادع من أعماق الظلام .

وعلى رغم أن طريق « موتوكولوبو » كان فى تلك الساعة الحائرة لا يزال غير بين ، تائها بين المستنقعات ، فقد بدأ أوائل الفلاحين يجتازونه ، يحملون الثمار والخضار على الطريقة الصينية ، على طرفى عصاة فوق أكتافهم ، ويجدون فى خطوهم ليبلغوا سوق « آفوغادوس » قبل شروق الشمس . وقد خربت أمطار « مايو » الطريق فأصبح طينا كله ، وأخذ الفلاحون وظهورهم تثقلها السلال يمشون فى عسر فوق الطين الذى تغوص فيه أقدامهم فينفذ من خلال أصابعها .

والصباح أيضا أخذ يشق لنفسه طريقا بين ضباب المستنقعات . ولكن ، فجأة ، كأنما انهار هذا الضياء اللبنى فاندلق بمثل دوى

الطبول مطر بارد ثقيل ، يحطم على الأرض قطراته الضخمة • وسطع البرق فكشف السهل كله وأضاء أوراق شجر « المانجريف » التى يهزها الريح • وخنقت جلبة الرعد أصوات الجداجد والضفادع • أما الفلاحون الذين دهمتهم العاصفة فأخرجوا من سلالهم أكياسا من كتان يتخذون منها دريئة لرؤوسهم ، ثم عادت قافلتهم الى المسير وقد أصبح طريقهم كله مليئا بالسراطين التى أيقظها المطر الهاطل فأخذت تتراكض فى كل اتجاه ، يفزعها قصيف الرعد •

ثم انقطع المطر مع اشراق الشمس ، فكشف ضوء النهار عن هذا المشهد الغريب ، مشهد الطين والماء تعيش عليهما كائنات «برمائية» ، هى الناس والسراطين فىمستنقعات نهر «الكابيباريبى» • ذلك لأن مستنقعات « ريسيف » هى جنة السرطان ؛ واذا كانت الأرض قد خلقت للبشر تعطيهم كل ما هم بحاجة اليه ، فالمستنقعات أعدت خصيصا للسراطين • فكل ما فيها سرطان ، أو كان كذلك أو سيكونه ، يستوى فى ذلك الطين والبشر • فالطين الممزوج بالبول والروث ، وبكل النفايات التى يحملها المد ، لن يلبث أن يحول الى سرطان • والسرطان يولد فيه ، ويعيش منه ، وينمو بأكله ، ويسمن بالحثالات التى يحملها ، يصنع منها اللحمالأبيض فىأطرافه والعصارة المائلة الى الخضرة فى أحشائه • وأما البشر فما يعيشون الا على صيد السراطين ، يأكلون لحم أطرافها ، ويتمصصون الدرع الذى يكسو جسمها ويلعقونه حتى يمسى فى نظافة الزجاج ، ومن هذا الطين الذى أصبح لحما يؤلفون لحم أجسادهم ولحم أجساد أبنائهم • وهم مائتا ألف ، مائتا ألف مواطن سرطانى ، مجبول من لحم السرطان • وما تفرزه أجسادهم من فضلاتيعود الى الطين وينقلبمرة أخرىسراطين•

ومن فوق هذا المشهد الطينى الذى بدأ ينبض بالحياة تحت الشمس الاستوائية ، أخذت تلوى فى الحاح نداءات حادة ، هى صفارات المصانع تدعو عمال الأحياء الفقيرة فى « آفوغادوس »

و « سانتو آمارو » وجزيرة « ليتى » • نداءات عنيفة زاجرة أحيانا ، وديعة أحيانا أخرى ، توقظ ما كان لا يزال غافيا من الخرائب فتبعث الحياة فى الضاحية ، ومن فتحات السقوف وشقوق الأبواب تنسرب رائحـــة الدخان والقهوة ، ثم ترتفع جلبـــة الأطفال الذين يكحون ويصرخون • وتدب الحياة فى شعب الأكواخ ، يستعد ليوم جديد من دورة السرطان ، فتنفرج الأبواب ويظهر أهل المستنقعات فى الأزقة، مشدودى الوجوه لم تكتمل يقظتهم بعد • فأما الرجال فينطلقون على عجل ، حاملين تحت ذراعهم العلبة الصـــغيرة التى تحوى طعامهم • وأما النساء فأكثر تثاقلا ، يحذرن لسعة الماء البارد فيشمرن ثيابهن ويبحثن عن مواطىء جافة لأقدامهن • وأما الأطفال فيصخبون جميعا فى برك الماء ، صغارهم عراة ، وكبارهم يسترون عورتهم بخرقة رثة• وكلهم يغطسون فى الوحـــل دون مبـــالاة ، يتبارون فى اقتنـــاص السراطين ، لايلقون بالا لبرودة المـــاء ولا للسعات البعوض الذى يدندن بين أوراق « المانجريف » الدهنية •

واستيقظ « جوان باولو » على نداء الصفارات • وجلس على فراشه القش وعيناه لا تزالان مغلقتين ، وأخذ يفرك وجهه بيـديه اللتين ما تزالان خدرتين ، وأخـــيرا فتح عينيه وتمطى فى تثاؤب طويل • وجال بنظره فى أنحاء الغرفة فوقع على أخويه الصغيرين نائمين فى ركن منها ، وعلى أبويه اللذين سبقاه الى المائدة ، فمـد يده نحـوهما وحياهما تحية الصـباح بصوت متعب : « بركتـك يا أبى ••• بركتـك يا أمى • » وأجابه كلاهمـــا : « الله يرضى عليك يا بنى ! » •

وقفز الغلام من سريره وفتح الباب الخلفى ، فسقطت الشمس على وجهه الهزيل الأسمر الموجن ، وعينيه السوداوين العميقتين • وفى نشوة تأمل المد الذى كان فى تلك الساعة يصعد ويتقدم حتى عتبة الكوخ • ومشى « جوان باولو » فى بقع الماء الوحلة فمـزق

لاطار الفضى الذى كانت تحيطها به الشمس ، حتى اذا غطى الماء قدمه توقف ليبول • كانت نافورة بوله تلتمع فى الشمس كأنها قوس قزح ، وتحدث فى سكون البركة جلبة كأنها قرقعة شلال ، فيملؤه ذلك زهوا ، ويشعر أنه أصبح رجلا مادام قادرا على أن يحدث مثل جلبة صيادى السراطين وهم يبولون فى المستنقع •

وأوغل الفتى فى البركة ثم انحنى ليغسل وجهه ، وبلل عينيه بطرف أصابعه ليمسح ما فى موقهما من رمص • ثم تمضمض بقوة، وبعد ذلك ضغط وجنتيه بيديه فاندفع الماء من فيه الى بعيد • وضحك ، مفتونا بمأثرته : فكأنما كان فمه صنبور ماء ، كصنابير تلك الأنابيب التى يستخدمها حدائقيو السادة الأغنياء للسقى والتى تصل دفقتها من بعيد الى كل النباتات التى تحتاج للماء •

واستسلم « جوان باولو » للأحلام ، بينما الشمس تجفف وجهه الندى ، فحلم أنه أصبح حدائقيا فى واحد من منازل كبراء المدينة التى تتبدى من بعيد ، حيث لن يعيش الا فى الرائحة العطرة ، رائحة البقول والأزهار ، ولن تطأ قدماه العاريتان الا العشب الأخضر ، بدلا من هذه الرائحة العفنة فى المستنقع ، ومن هذا الوحل الذى يتحول فيه هو نفسه الى سرطان •••

على أنّ أباه ناداه من داخل البيت ، فاندفع بخطى كبيرة يقذف الماء فى كل اتجاه ، وعاد الى المنزل ليأكل • وجلس مع أبويه يلتهم حساء السراطين وقد طبخت بالملح ، ويمصمص أطرافها ودروعها ، بينما كان أخواه الصغيران لا يزالان نائمين ، يلفهما غطاء جمع من رقع مختلفة • وكان أبواه يأكلان فى صمت •

وسأل « جوان باولو » ، والطعام يملأ شدقه :

ــ أبى ، لماذا جئنا نسكن هنا ، فى المستنقع ؟

فأجاب « زيلويس »[1] بصوت هادىء :

ـ لأننا ، حين هربنا جياعا من داخل البلاد ، لقينا هنا أرضنا الموعودة ٠

وأضافت الأم بصوت محنق :

ـ الأرض الموعودة للسراطين ٠

على أن الصغير لم يقنع بالجواب ، فعاد يسأل :

ـ ولكن ، لماذا هنا بالذات ؟ لم لم نذهب الى المدينة ، فى الطرف الآخر من المستنقع ؟ هناك ، كأنما هم فى عالم آخر ٠

فأجابت الأم وهى تحدق النظر بعينى ابنها :

ـ لأن الطرف الآخر جنة الأغنياء ، أما هنا فجنة الفقراء ٠

ولكن عينى الطفـــل ازدادتا اتساعا ، وظل التساؤل نفســه محفورا على وجهه ، وظل عاجزا عن أن يدرك لماذا اختارت أسرته أن تعيش فى جنة الفقراء ، فى وحل السباخ الأسود ٠

ودخل من الباب المفتوح صوت جرس كنيسة « آفوغادوس » ينــادى المؤمنين للصلاة ٠ فاستعجل « جوزيه لويس » ابنــه حتى لا يفوته الوقت :

ـ فى يوم آخر ، يا صغيرى ، ســأروى لك لماذا جئنا نسكن هنا ٠ أما الآن فالوقت ضيق ٠ صلاة الساعة السادسة توشك على البدء ؛ وبعد قليل ، متى انتهى راعى الكنيسة من واجباته نحو الله ، يأتى أوان ذهابكما لصيد السراطين ، وسيزعجه أن تجعله ينتظر ٠ فأكمل طعامك سريعا وعجل بالذهاب اليه ٠ احمل له معك هــذه السراطين هدية له ، ولا تضع الوقت بالتلهى فى الطريق ٠

---

(١) تصغير مألوف لاسم «جوزيه لويس» (المترجم) ٠



٢

توجه «جوان باولو» نحو منزل «الأب أريستيد» ، وهو يصفر صفرة خفيفة ، وقد وضع احدى يديه فى جيبه وحمل بالأخرى صرة من السراطين ربط بعضها الى بعض ، يدومها فوق رأسه من حين الى حين . كانت هذه أول مرة يحمل فيها هدية للأب « أريستيد » ، وكان ذلك يقلقه ، ويشغل باله كيف سيكون استقباله له .

على أن الصور المألوفة لديه ، فى طريقه الذى يمر عبر المستنقع ، سرعان ما شغلته عن هذا النوع من الهموم . فهو لم يكد يبتعد خطوتين عن منزله حتى التقى بالزنجية « ايداليناً » ، تجلس القرفصاء على العتبة التماسا لدفء الشمس . وسألها « جوان لويس » عن حفيدها « أوسكار ليندو » ، الذى كان رفيقه الدائم الى الصيد حتى اليوم الذى عثر فيه على عمله لدى الراهب، فابتسمت الزنجية كاشفة عن لثتها الهتماء وقالت :

– « كارليندو »(١) خرج . ذهب يبحث عن الطعام من أجل « باى » . هل تسمع « باى » ؟ انه دائم الهمهمة ، دائم الجوع .

---

(١) اختصارا لاسم «أوسكار ليندو» للتحبب (المترجم) .

وارتفعت من أعماق الكوخ الخشبى دمدمات خنزيرها «باى» ، الذى كانت « ايدالينـــا » تسمنه بما ترميه منـــازل الأثرياء من فضلات ، آملة أن تبيعه بثمن مجز فى عيد الميلاد • وكانت قـد اشترته وهو بعد وليد ، وربطته منذ ذلك الحين فى زريبة مسيجة على حافة المستنقع ، حيث كان لا ينفك عن طلب الطعام •

— لم أر فى حيـــاتى أكولا مثـــله • انه يبكى ويتخبط كل النهار • ولكنه أصبح سمينا جميل المنظر • كتلة رائعة من اللحم•

وكان أشـد ما تخشاه « ايدالينا » ، وقـد أصبح « باى » فى سمنه ذا قيمة كبيرة ، أن يأتى من يسرقه فى الليل فيحطم حلمها الكبير ، وهو أن تبيعه فى سوق « آفوغادوس » متى اقتربت الأعياد فتقبض ثمنا له ما يكفيها لشراء بزة وحذاء لأوسكار لينـــدو ، من أجل احتفال مناولته الأولى • ولذلك كانت كل مساء تتحرق رغبة فى ادخال الخنزير الى بيتها لتأمن كل خطر ممكن ، ولكنها كانت تعلم أنها لو فعلت فلن يستطيع النوم أحد ، فكانت تذعن للضرورة وتنتهى الى ابقاء « باى » فى زريبته ، مع الاصغاء الدائم والانتبـاه لكل حركة مريبة • فكانت لا تنام أبدا الا بعين واحدة ، أما الأخرى فدائما مفتوحة ، مثبتة على خنزيرها ، على كتلة بدنه المـكور ، وخطمه الندى ، وعينيـه الصغيرتين الماكرتين تحجبهما حلقات من الدهن . وهكذا لم يكن منام « ايدالينا » الا حلم حب ، هو حبها لخنزيرها • على أنه حلم لم يكن يبرأ من الهواجس : فلقـــد حدث ذات ليلة أن اجتذبت رائحة الفضـــلات كلبا جائعا فجاء ينافس الخنزير على بقايا طعامه ، فحرن الخنزير وهاج وماج ، وكان أول ما عن لخاطر « ايدالينا » أن قد جاء لصها المنتظر ، فقفزت من نومها وخرجت الى الباحة تحمل عصا المكنسة لتنتزع خنزيرها من بين يديه • واذ ذاك أثلج صدرها أنها لم تجد الا كلبا ناحلا لم يلبث أن هرب ، وقد أخفى ذيله بين ساقيه •

ووجهت « ايدالينا » الى « جـــوان باولو » دعوة لمشـــاهدة خنزيرها ، ثروتها الوحيدة ؛ وبينما كانا كلاهما ينظران الى هذه الكتلة الضخمة من اللحم ، الدائمة الشكوى ، والمتخبطة فى وحل الزريبة ، أخذت تحدثه عن ربيبها فى حنان ، فروت له كيف أن كل ذلك اللحم ، وكل ذلك الدهن المكتنز فى تضـاعيف جسم الخنزير ، كان من نتاج جهد « كارليندو » ، حفيدها الذى ينطلق كل صباح ، حاملا صفيحة قديمة ، ليجمع من المقمات فضلات طعام تغذى بها خنزيرها • كان عليه أن يخرج مبكرا جدا ، قبل شروق الشمس ، ليسبق شاحنة الزبالين ، نظرا لطول الوقت الذى عليه أن يصرفه وهو يفرغ أوعية القمامة وينتقى من كل منها ما يصلح طعاما للخنزير ، من بقايا أرز ، وعظـــام دجاج ، وكسرات خبز ، وفـــواكه وخضروات فاسدة • وكان هذا عملا شـــاقا ، محفوفا بالمخاطر ، اذ كان من المحتمل دائما أن يقع « كارليندو » فى الجرم المشهود بين يدى واحد من حراس منازل الأغنياء أو حدائقييها ، أو أن يضطر الى الفرار تحت سيل من الشتائم : « ولد قذر ! لص قمامة ! لقد وسخت الرصيف ! » ••• وكثيرا ما اضطر «أوسكار ليـنــدو » أن يتخلى عن حصيلة جهده ، وحتى عن صفيحته ، وأن يطلق قدميه للريح مخافة أن تناله عصا الحـــارس أو أن يقوده الى مخفر الشرطة • وفى هذه الأيام المنحوسة ، التى كان الغلام يعود فيها خالى الوفاض ، كان الكوخ ينقلب الى قطعة من جهنم ، بين بكاء « ايدالينا » حزنا على خنزيرها البائس الذى سيبقى على الطوى ، وبين جلبة «باى» التى كان يضج لها الحى كله • أما أيام الفرحة الكبرى فكانت كذلك اليوم الذى عثر فيه « كارليندو » أمام منزل واحد ، على ثلاثة أوعية ملأى بالطعام ، هى بقايا حفـــلة عرس أقيمت فى الليلة الفائتة ، بحيث اضطر أن يعيد رحلته راكضـا ثلاث مرات ليأتى بكل هذه الثروة • ففى ذلك اليوم المشهود ملأ الخنزير بطنه من الطعام بما جعله ينام سواء النهار دونما نخرة ،

بل ان «ايدالينا» نفسها وجدت الكثير من البقـايا ومن الفواكه الصالحة للأكل • وكان هذا يجعلها تأسف لقلة حفلات الأعراس التى يقيمها الناس • صحيح أن كبار رجال السياسة يقيمون كثيرا من الولائم ، و «أوسكارليندو» يعلم ذلك ويعرف منازلهم ، ولكنه يعرف أيضا أن هناك دائما حراسا على أبواب هذه المنازل ، لا يدعون أحدا يقترب منها ولو لإلتقاط الأوساخ •

وأعرب «جوان باولو» فى أدب عن اعجـــابه بجمال «باى» واكتناز لحمه ، ثم تابع طريقه ، آسفا لأنه لم يستطع لقاء صديقه «أوسكارليندو» • على أنه لم يكد يبلغ أقصى الزقاق الذى ينتهى عند حافة النهر حتى وقع على عينيه شعاع قوى من الضياء ، واذ ذاك امتلأ وجهه غبطة ، لأن هذا الشعاع الذى جاء يعشى عينيه كان تحية الصباح يبعث بها اليه صديقه الكبير «كوسمه» من قلب كوخه البعيد ، المنتصب هناك بين الأشجار ، بواسطة كسرة من مرآة رآها تلتمع فى الشمس فوق قاعـــدة النافذة المنخفضـــة • وكان يعرف أن صديقه الكسيح «كوسمه» هو الذى يمسك تلك المرآة بيده الخبيرة ، وأن هذا الصديق كان فى الوقت نفسه يلتقط تحيته الأخوية اذ يلوح له بيده العريضة ، بينما هو مشدود بالمرض الى سريره يتابع مشهد الحياة فى الخارج من خلال هذه المرآة البدائية •

ولقد كاد «جوان باولو» ينقاد للاغراء فينحرف عن طريقـــه ليزور «كوسمه» فيسمر معه بعض الوقت ، ولكنه تذكر أن عليه أن يسرع لأن أباه أوصاه ألا يتأخر ولأنه يخشى أن يؤنبه الراهب ، فاكتفى بتحية أخرى يلوح بها لصديقه وتابع مسيرته ، تلاحقه بقعة الشمس التى كان «كوسمه» يرسلها اليه ، والتى كانت تقفز من حوله ، واعدا نفسه أن يذهب الى زيارة صديقه فى المساء قبل موعد النوم ، ليستمع منه الى حكاياته الحلوة عن العالم الذى كان عرفه طولا وعرضا يوم كان لا تزال له قدمان • أما الآن فقد انتهتا،

قدماه ، فما هما الا قضيبان جافان من عظم وجلد • قدمان ميتتان لم يعد يستطيع تحريكهما ، بعد أن أكلتهما منطقة «الأمازون» •• كان ذلك منذ ثمانية عشر عاما ، قبل مولد «جوان باولو» بسنين عديدة ، يوم سقط «كوسمه» مريضا فى فراشه ثم لم يستطع النهوض من بعد ، وأصبح معزولا عن كل شيء ، كالخرقة الممزقة فى أعماق مسكنه الخرب ، لا تسلية له الا هذه المرآة الصغيرة التى تصله بالعالم الخارجى ، اذ يضطجع ورأسه الى جانب النافذة الخفيضة ، ويوجه مرآته نحو الطريق الطويل المحاذى للنهر ،والذى يجتازه الآن « جوان باولو » • وفى هذه القطعة من الزجاج المطلى يلتقط انعكاسات الحياة التى تمنعه من أن يغلق عينيه بصورة نهائية •

وعلى طول النهر ، دون انقطاع ، تتتابع المساكن الحقيرة •• وأمام باب أحدها وقف طفلان فى عرى كامل ، وقد تكور بطناهما كالقربة فوق فخذيهما الناحلتين الملتويتين ، اللتين يغطيهما طين جف فأصبح بلون الرماد • فلما مر «جوان باولو» الى جانبهما طبطب هذين البطنين المشدودين ، المنتفخين بالريح ، مداعبا الطفلين ، فأدهشه الصوت الذى أحدثته ضرباته الخفيفة ، وكأنه ينقر حقا على صندوق كبير فارغ • وضحك الطفلان ، سعيدين بهذه الدعابة ، وأخذا يقلدان حركة «جوان باولو» فينقر كل منهما على بطن الآخر •

ولما اقترب من المدينة ، حيث تبدأ مساكن الآجر والصفيح ، مر بعصبة من الفتيان يلعبون بالكرة • كرتهم جورب نسائى مملوء بالخرق ، وهم سعداء به يلعبون فى حماس • وتوقف «جوان باولو» لحظة ، يتحرق رغبة بالاسهام فى اللعبة ، وأن يبقى نهاره كله مع هؤلاء الفتيان ، ولكنه فكر بالعمل الذى ينتظره ، وبتوصيات أبيه، فقرر استئناف طريقه • وفى هذه اللحظة كانت الكرة تطير فى

اتجاه «جوان باولو» فاذا هو فجأة ، ودون أن يتوقع ذلك أحد ، يردها بضربة قدم قوية ، جعلت الكرة تجتاز كل الساحة ، وتسقط بعيدا ، فى الماء ، تحت أوراق «المانجريف» • وقد أغضب ذلك اللاعبين ، فتقدموا نحو «جوان باولو» وأمطروه بالشتائم ، ولكنه هرب وهو يطفر ويقفز ، ويؤرجح صرة السراطين ، وعلى شفتيه بسمة ساخرة ، يعبر بها عن سعادته بالثأر من هؤلاء الفتيان العاطلين ، الذين كان لهوهم فى مثل هذا اليوم الرائع تحديا له •

ثم أتعبه العدو بعد قليل ، فتوقف يلتقط أنفاسه ويتأمل المنظر الهادىء من على حافة السبخة • ثم قرفص يرقب السراطين الساكنة من قريب ، وهى تزبد فى الشمس ، وكأنها قطيع ثيران انتشرت تجتر فى المرعى : صورة من صور طفولته الأولى كانت تعاود ذاكرته ، من صور مزرعة أهله فى «السرتون» ، حيث كانت الشمس تسوط الساحة اللاهبة ، والثيران على قوائمها ينساب من خطمها خيط من الزبد الأبيض ، اللزج ، الشبيه بزبد السراطين •

على أن الذكريات تصدم بعضها بعضا أو تختلط • فهناك أشياء ترتسم جلية فى ذاكرة «جوان باولو» حتى لكأنها تجرى الآن أمام عينيه ، بينما تبقى أخرى غيرها غامضة مشوشة ، كما لو أنها رويت له أو جرت لشخص غيره ، وحينئذ يتصور «جوان باولو» أنه كان طفلا آخر ، عرف مغامراته من خلال أمه : مغامرات ترجع الى عهد «السرتون» البعيد يوم كان ذلك الطفل الآخر •

هكذا بدا له أن أنفه يمتلىء بروائح تكاد تكون حية ، هى روائح الزريبة الى جانب بيته القديم فى «السرتون» : الأبقار برائحتها الحامزة ، واللبن المسفوح برائحته الحامضة ، والزبل برائحته اللاذعة • وها هو ذا فى غرفته ، تصله اليها فى وضوح أصوات أبيه ومعاونيه ينهضون الأبقار ليحلبوها ، بينما تخور

العجول تنادى أمهاتها فاقدة الصبر · تلك كانت هى الأصوات التى توقظه هى نفسها كل صباح ، فيجلس فى سريره وينحنى على النافذة المطلة على الزريبة ، وحينئذ يأتيه أبيه بطاسة من الحليب الدافىء الراغى يشربها فى غبطة ، ثم يبقى له دائما بعد ذلك شارب من الرغوة فوق شفته العليا فيقول له أبوه فى كل مرة وهو ينظف له فمه بأصبعه القاسية : «أنظر · لقد أصبحت رجلا ·· حتى شاربك ظهر !» وكان «جوان باولو» سعيدا بذلك ، يبتسم وهو يطيل النظر الى العجول الوليدة اذ تنطح برؤوسها ضروع الأبقار عساها تدر مزيدا من اللبن ·

ويذكر «جوان باولو» أنه استيقظ ذات صباح أبكر من عادته ، وكان خاوى المعدة وقد نام ليلتها دون عشاء · وفتح مصراع النافذة الخشبى فاذا الشمس لم تشرق بعد ، واذا الزريبة خالية الا من الأبقار التى كانت تجتر فى انتظار مجىء الحلابين والعجول· وحينئذ ، فجأة ، شعر الطفل برغبة لا تقاوم فى أن يذهب فيرضع اللبن من احدى هذه البقرات كما لو كان عجلا صغيرا ، يمتصه من حلمتها ويمرغ رأسه بين ضروعها ، فقفز من النافذة وركض الى تلك التى يسمونها «البقعاء» وكانت تجأر قريبا من رتاج الزريبة، وقد ذهب صبرها قبل الأخريات أو اشتد حنينها الى صغيرها ·· وانحنى «جوان باولو» بجسمه تحت بطن الدابة ، وبدأ يمتص احدى حلماتها وهو مغتبط بالشعور بأنه يرتكب اثما كبيرا ·ولكن الحليب لم يأت ، فقد كان ضرعا البقرة مرتخيين ، ولم يكونا أبدا منتفخين كما يحدث حين يدران اللبن · واذ ذاك حاول «جوان باولو» أن يقلد العجول فأخذ ينطح برأسه ضرع البقرة ، ولكن البقعاء فيما يبدو لم تعجبها هذه اللعبة ، فرفسته برجلها فاذا هو يتدحرج على الأرض ، وأنفه فى الزبل · وفى تلك اللحظة وصل أبوه ، فأدرك ما جرى ، وساعد ابنه على النهوض ، ولما رأى وجهه

الذى اختلط فوقه الحليب بالطين ، وقميصه الذى غطاه التراب ، قال له وهو يبتسم :

ـ ها أنت قد أصبحت عجلاحقيقيا ، متسخا ، يغطيك الروث • وعجلا سراقا فى الوقت نفسه ، من تلك العجول التى ترضع كل لبن أمها خلسة •

ثم ضربه على قفاه ضربة خفيفة فى حنان ، كما يفعل حين يضرب مؤخرة عجل عنيد •

***

وحومت طائرة على ارتفاع منخفض فأنست « جوان باولو » ذكريات « السرتون » البعيد وهى تمر بدويها الجهنمى فوق رأسه. ثم تضاءل هديرها وانتهى بالاختفاء ، واختفت هى الأخرى ، ولكن « جوان باولو » كان ما يزال يتابعها بنظره فى الأفق .

وحينئذ غمره حزن مفاجىء ، وتنهد فى زفرة عميقة ، وهو يدرك أن الهواء الذى يدخل أنفه لم يكن ذلك الذى يحمل اليه روائح «السرتون» الزكية الدافئة ، روائح القطيع الندى بالعرق ، والزبل الداخن ، والأرض المحروثة ، بل رائحة باردة هى رائحة الطين العفن والأرض العطنة ، رائحة الجيفة فى هذه الأرض التى تسكر العقبان والكلاب الجائعة ، ولكنها فى الغالب تجعل «جوان باولو» على وشك القيء ..

على انه جالد ضيق نفسه ، وارتفعت فى صدره الطفل رغبة لاهبة بالفرار ، بالسفر ، بالخروج من ذاته ومن اطار أسرته المغلق ، بتحطيم دورة السرطان ، بالهرب من « ريسيف » ! وأقسم أن يقتلع كل المراسى التى كانت تشده الى وحل « الكابيباريبى » والى أوراق «المانجريف» وأن يذهب بعيدا تحمله المراكب التى يراها تمخر فى عرض البحر كأنما تتحداه بدخانها المتصاعد ، وكأن مداخنها علامات رجولة واقدام • فلقد كان هذا الفتى الناضج قبل أوانه ، والذى

بدأت سن المراهقة تنفخ جسمه وأفكاره ، لا يرى الرجل - الرجل الحق - الا شبيها بمركب فى عرض البحار ، لا يسمح لنفسه بالبقاء طويلا فى أى مرفأ ، بل يكفيه من الأرض أن يشم رائحتها، وأن يلامسها فى مرور عابر على رصيف الميناء ، ثم ينطلق سريعا نشدانا لروائح أخرى ولأراض جديدة غريبة .

على أن المد أخذ يعلو ، وارتعفت الحملة الفضية فوق الطين ، فعاد اليأس يغزو « جوان باولو ». انه لن يستطيع الفكاك من وثاق المستنقع . وتصلب جسده كله كأنما يحاول الخلاص من هذا الكابوس الذى يخنقه ، يخالطه الشعور بأن أشجار «المانجريف» قد دهمته على غرة ، فى الوضع الذى كان عليه وهو يجلس القرفصاء على حافة الماء، وأنها استغلت ذلك لتسجنه فى شبكة جذورها الدقيقة وأغصانها الملتوية المجدولة . وحينئذ قفز « جوان باولو » مبتعدا عن الشاطىء ، ووقف على قدميه ينظر الى فريق من الصيادين يطاردون السراطين ، وقد غطسوا حتى منتصف أفخاذهم فى وحل السبخة . كانوا ثلاثة من الشبان السمر ، تغطى جسدهم كله طبقة كثيفة من الطين كأنها درع له ، فكانوا فى عين الفتى يشبهون أبطال حكايات الفروسية القديمة التى يرويها له « كوسمه » : عمالقة جبل جسدهم كله فى قوالب ضخمة من طين المستنقع ، وولدوا فى هذا الطين نفسه ، كما تولد ثم تنمو السراطين . و «جوان باولو» يرى فى فرسان البؤس هؤلاء ، بدروعهم الطينية ، وفى السراطين بدروعها الصلبة ، أبطالا من عالم على حدة ، وينتسبون الى أسرة واحدة هى أسرة غزاة المستنقع ، التى يدرك أنه هو نفسه واحد من أبنائها .

وكان الصيادون لا يألون يزدادون اقترابا من حافة المستنقع، حيث تتكاثر السراطين ، ثم ينبطحون على الأرض ويبدأون هجومهم غارسين أذرعتهم فى الوحل . وقد امتلأ الفتى حماسا لهذا المشهد فنسى واجبه لحظات وظل فى مكانه يرقب حركات الصيادين الدقيقة

وحوارهم القاطع · وكان أكبرهم سنا ، وبطنه وفخذاه ملتصقة بالطين ، يقول لواحد من زميليه يبدو أنه كان ما يزال ضـــئيل الخبرة :

- ادهن جلدك جيدا بالطين ، يا «جوزيه» ، والا فان البعوض سيلتهمك حيا ·

- لقد فعلت ، ولكن البعوض اليوم يموت جوعا فيما يبدو ، فهو يعض ويقرص من فوق الطين · على أني لا أبالى به ، فليقرص كما يشاء فقد تعودت عليه · ثم ان البعوضــة لا تأكل اللحم ، بل تخدشه فحسب ، وهذا ليس بالأمر المزعج ·

قال «جوزيه» ذلك ثم أخذ في غبطة يحك ظهره ومؤخرته بيديه الموحلتين ، فقهقه «جوان باولو» وانطلق راكضا نحو منزل الراهب المبنى على ساحة صغيرة الى جانب الكنيسة ·

وكانت الصلاة قد بلغت نهايتها حين وصل الى الســاحة ، وأخذت النساء الفقيرات يهبطن درجات الكنيســة وعلى رأسهن مناديل سود ، ثم يتفرقن يمنة ويسرة · ثم ظهــر الرأس ، متورد مدخل الكنيسة ، قصيرا ، ضخم الجثـــة ، مكور الرأس ، متورد الخدين ، فاقترب منه «جوان باولو» وقبل يده السمينة في احترام ثم قدم له هدية السراطين التي يحملها له ، خجولا ، دون أن ينبس بكلمة · وابتسم الراهب ، وهو يضع يده على رأس الطفل ، ثم طلب منه أن يحملها الى طاهيته العجوز «آنا» ·

وكان قيم الكنيسة قد أغلق أبوابها حين ظهر في الساحة رجل نحيل ضامر الجسم ، وفي عينيه جزع القرويين ، وعلى رأســه قبعة كبيرة من الجلد ، وتحت ذراعه دجاجة هندية حيـــة · وكان واقفا أمام البوابة المغلقة ، يبحث عن وسيلة لدخول الكنيسة كيما يتحدث الى الراهب ، حين ظهر هذا على باب منزله يرافقه «جوان باولو» · وحينئذ عادت للرجل بشاشته ، واتجه نحوهما مسرع

الخطى • ولكنه لم يلبث أن وقف ، وفى عينيه الحيرة والتساؤل ، أمام منظر الراهب • وكان على حق فى ذلك لأن الأب «أريستيد» كان يحمل باحدى يديه طبلا وبالأخرى سلة كبيرة من القش ،بينما هو لم ير فى حياته راهبا يقرع الطبل ، والطبول للجنود لا لرجال الدين • ولكن الأب نظر اليه فى ابتسامة اطمأن لها ، فلم يعدلديه شك فى أنه هو الراهب • وحينئذ اقترب منه ، وقال له فى لهجة يملؤها التواضع :

ـ يا أبت ، اننى قادم وفاء لنذر • وأنا أحمل هذه الدجاجة للشهيد «سان سيباستيان» •

فأجابه الراهب :

ـ انك معه تتكلم ، يا بنى •

وحينئذ عاودت الدهشة وجه الرجل وظل متسمرا فى مكانه• ولكن الراهب تقدم نحوه خطوة ، وأخذ الدجاجة الهندية من بين يديه ، وهو يكرر :

ـ انك معه تتكلم ؛ يا بنى •



٣

كان أهالى « آفوغادوس » قد اعتادوا ، حين يمرون بالأراضى العالية على شاطىء النهر ، ألا يستشعروا أية دهشة حين يلتقون بالأب « أريستيد » فيرونه يقرع الطبل فى حماس ، وهو يجأر كما تفعل الوحوش الكاسرة • على أنهم ، قبل ذلك ببضعة أشهر ، حين رأوا الراهب فى رفقة « جوان باولو » يندفع بقرعاته المجاجلة عبر الحقول ، شعروا جميعا بالخوف وظنوا أن راعى كنيستهم أضاع عقله ، وأشفقوا جميعا عليه . فلقد كان مما يدعو الى الرثاء حقا أن يروا مثل هذا الرجل البالغ الطيبة ، القائم حق القيام بمهمته الكهنوتية ، يفقد صوابه على غرة ويذرع كل أرجاء الضاحية لاهيا يقرع الطبل بكل هذا العنف ، كأنما يدعو الى الجهاد جيشا من أرواح غير مرئية • وذاع النبأ فى كل المنطقة : ان روحا خبيثة قد استولت على نفس الراهب الطاهرة ، فهو الآن ممسوس مخبول • وأصبح الأمر حديث الساعة بين رعية الأب «أريستيد» •

ولقد أراد بعضهم ، ممن كانوا أشد قلقا أو حب اطلاع ، أن يستجلوا الأمر بأنفسهم ، فاقتربوا من حوافى النهر على حذر ، حتى إذا بصروا الراهب المكتنز الجثة ، ومعه تابعه «جوان باولو» يساعده

وقفوا بعيدا فى احترام ، مذهولين أمام هذا الطقس الغريب من طقوس العبادة ، الذى كان دون ريب شكلا مجهولا من أشكال «الزار» . كان الأب «أريستيد» يقف بين الحين والحين ، فى مواضع لا بد أن قوى خفية كانت تحددها له ، فيبدأ فى ممارسة هذه الصلاة العجيبة ، ويظل يقرع طبله بقوة متزايدة حتى ليبدو أن قامته القصيرة نفسها تصبح أكثر امتدادا وسط هذه الجلبة المرعبة . ثم يقف على مقدمة قدميه فيصفر صفرات طويلة ، كأنما هى الريح تعصف فى السهل المجدب . ثم يتوقف القرع ، ويهز «جوان باولو» المسقاة التى يحملها فيروى بها الأرض من حوله .. وقد عاد المراقبون من هذا المشهد الى منازلهم وهم أكثر قلقا أو أكثر حب اطلاع مما كانوا ، أمام هذه المصيبة التى نزلت بالأب «أريستيد» والتى لم يستطيعوا تفسيرها .

وقد انتشر خبر هذا النوع الجديد من الجنون ، حتى بلغ مسامع رئيس أساقفة «ريسيف» . ولكن حقيقة الأمر لم تلبث أن اتضحت لحسن الحظ ، بفضل «القندلفت فيريموندو» . اذ كان «فيريموندو» قيما على الكنيسة يخدمها منذ سنين طويلة ، فلما رأى هذه الموجة من الروايات غير المعقولة تزداد انتشارا قرر أن يبحث الموضوع مع الراهب ، بادئا حديثه بتلميحات غامضة ، لم يلبث أن عدل عنها حين اتضح له أن الأب «أريستيد» لم يفهم قصده ، وأن روى له كل ما يذيع فى المنطقة عنه وعن تلك الطقوس التى يباشرها فى وضح النهار ، على شاطئ النهر ، والتى يقال انها طقوس شيطانية ، تقوم على ميثاق بينه وبين ابليس يهدف الى أغراض لا يدركها أحد، لا سيما وأن الراهب كان دائما فى نظر الجميع فوق الأطماع والأهواء لا يحرص الا على خير قطيعه من المؤمنين . ثم أضاف الى ذلك أن هذه الشكوك قد بدأت تسىء أشد الاساءة الى ما كان يتمتع به الراهب ـ بفضل حياته المثالية ـ من مهابة واحترام .

وكان الأب «أريستيد» اذ ذاك يتناول طعام افطاره ، فكاد يغص بما فى حلقه ، وهو يضحك من كل قلبه لهذه التفسيرات البلهاء حتى شرق بقهـــوته • على انه خشية أن تزداد الاشاعات ضخامة فتسيء حقا الى سمعته ـ قرر أن يجلو كل سره :

ـ ان غرضى من هذا «الميثاق» واضح ودقيق ، يا «فيريموندو» ، وهو ارضاء كبرى خطاياى • فأنت تعرف كم أنا شره ، وتعرف أن طبقى المفضل هو «الغوايامو» على الطريقة التى تحشوه بها «آنا» العجوز • «الغوايامو» يا «فيريموندو» : ذلك هو خطيئتى الكبرى ، وهدف ميثاقى السرى • ولكنه ليس ميثاقا مع ابليس ، كما يقول هؤلاء الحمقى ، وليس للشيطان هنا أى دور • انه ميثاق عقدته مع هذا الشيطان الصغير البرىء ، « جوان باولو » ، أمهر من عرفتـه فى صيد «الغوايامو» . وقد ظل هذا حتى الآن سرا بيننا ، ولكنى بعد ما حدثتنى به أرانى مضطرا لكشفه أمام الآخرين • فاذع بعد ظهر اليوم عددا من الأصدقاء الأكثر ولاء للكنيسة ، لأشرح لهم كل شيء ، ولننتهى مرة واحدة من كل هذه الخرافات •

وفى العصيرة ، فى قاعته الصغيرة ، جمع الأب «أريستيد» دستة من البارزين فى رعيته ، وكشف لهم سر رحلاته على شاطىء النهر ، هذا السر الذى أثار كل تلك الأقاويل • وكان مسترخيـا فى كرسيه الهزاز ، يدير الحديث على هواه ، حين بدأ بالاعتراف بأنه منذ طفولته شديد الولع بالسراطين • وهو قد ذاق الـــكثير من أصنافها يوم كان لا يزال طالبا فى مناطق أخرى ، وكان معجبا بكل هذه الأصناف • ولكنه حين جاء الى «ريسيف» ذاق للمرةالأولى طعم«الغوايامو»فوجد أنه خيرها جميعا،بسبب طراوة لحم قوادمه الذى يذوب فى الفم وزكاوة طعم أحشائه الدسمة • وكان الراهب يعزو سمو «الغوايامو» الى فصيلته ذاتها والى طبيعة مايغتذىبه، فهو نوع من السرطان لا يعيش فى الطين كالآخرين ، بل على

الضفاف الجافة . وذرعه وعيونه زرقاء اللون ؛ كأنما هو حقا ممثل لجنس متفوق ، لسراطين رفيعة المولد ، نبيلة المنشأ ، منتقاة الغذاء ... وأضاف الراهب وهو يبتسم ، دون أن يلقى بالا الى أن بعض مستمعيه قد لا يفهمون قصده : «ان الغواياموسرطان من الجنس الارى» ، معترفا بتمييزه الفاضح لهذا الجنس ،الذى بلغ فرط تعلقه به أن تحول الى عادة مستأصلة مذمومة ، لا يستطيع منها شفاء . ولذلك ، ولما كان «الغواياموا» أندر كثيرا وأعسر صيدا من السرطان العادى ، فقد كان يضطر الى رجاء كل الناس أن يحملوا اليه ما يعثرون عليه منه ، ومع ذلك كان يبقى أحيانا أياما عديدة دون أن يستطيع تذوق طبقه المفضل ، مما كان يزعجه ويفقده شهيته ... الى أن كان ذلك اليوم السعيد الذى أتاه بالحل لهذه المعضلة المبرحة ، ذلك اليوم الذى أتاح له أن يكتشف طريقة للصيد لا تخطىء وأن يجد فى «جوان باولو» معاونا لا نظير له .. كان ذلك فى يوم شديد الحرارة ، والأب «أريستيد» يتنزه على ضفة النهر ، حين انفجرت عاصفة عنيفة ، واحدة من تلك العواصف الصيفية التى تهب دون انذار والتى يهطل فيها المطر كأنه السيل، وحشيا ، تصحبه الصواعق والرعود المخيفة . اذ ذاك رأى الراهب وهو يجتاز الحقول تحت وابل المطر ، عددا لا يحصى من سراطين «الغواياموا» تخرج من جوف الأرض بما يشبه السحر ، وتركض فى كل اتجاه على غير هدى ، وقد هجرت جحورها مصابة بما يشبه الجنون . وحينئذ أدرك الراهب لماذا يقول المثل الشعبى ان «الغواياموا» يفقد رشده حين يسمع العاصفة. وهذا ماجعله يتصور أن أفضل وسيلة عملية لاصطياد «الغواياموا» هى فى خلق عواصف مصطنعة ، عواصف صغيرة محلية تفزعه وتفقده رشده . وكان من أجل ذلك فى حاجة الى معاون ، فهداه الله الى «جوان باولو» هذا الطفل الذى أتيح للراهب أن يراقب صبره ومهارته فى الصيد على شاطىء «الكابيباريبى» وهو يدخل سويقا من العشب فى كل

ثقب ثم يسحبه منه فى أناة الى أن يخرج السرطان من جحره ، وحينئذ تعاقد معه .

تلك كانت حكاية ذلك المشهد الذى شغل بال الناس ، من قرع طبول ، وصب مياه ، وأصوات غريبة يطلقها الراهب عبر الحقول. فهذه كلها لم تكن الا «عدة الشغل» اللازمة لخلق عواصف اصطناعية تساعد على صيد « الفوايامو » ..

وأراد الراهب أن يبدد كل الشكوك ، فدعا أصدقاءه الى أن يرافقوه من الغد فى احدى رحلات الصيد هذه . والذين لبوا هذه الدعوة عادوا منها معجبين متحمسين . وهكذا انكشفت الحقيقة عن حفلات «الزار» التاعسة تلك ، وعادت الطمأنينة من جديد الى قلوب الرعية المؤمنة فى «آفوغادوس» ، ولم يعد سكان المنطقة يفزعون حين يلتقون بالأب «أريستيد» ومعه طبله الضخم وسلته المصنوعة من القش ، وفى رفقته «جوان باولو» يحمل المسقاة ، بل أصبحوا يحيون راهبهم فى احترام جذل ، ويقترب منه النساء والأطفال ليقبلوا يده ثم يقفون على حافة الطريق يتأملون فى اعجاب هذين الوجهين الغريبين ، اللذين يعيدان الى ذاكرتهم ، بما يحملان من عتاد طريف ، وجوه أبطال الأساطير فى ساحة الحرب .

فى ذلك اليوم كانت الشمس اللاهبة تلمع فى سماء بلا غيوم ، وكان محاربا «الفوايامو» يسيران جنبا الى جنب،وعيونهما نصف مغلقة ، يعشيها فرط الضياء . وكان الراهب البدين يوشك فى كل لحظة أن يغوص بقدمه فى التراب الطرى ، بينما كان «جوان باولو» دائم الوثوب يمنة ويسرة ، دائم اليقظة لموطىء قدمه ، دون أن يدرى بعد أى اتجاه سيسلكه الراهب ليخوض معركة اليوم .

وكان الراهب فياض الغبطة ، يسعده المنظر الجميل المنور ، والنبأ السار الذى وصله البارحة (اذ وافقت الأسقفية على منحه

بعض المساعدة لتنظيف كنيسته وإعادة طلائها وطرد البـــوم والخفافيش من سقفها) والدجاجة الهندية التى قدموها لهفى الصباح فأخذ يحيى كل من يلقاهم بابتسامات عريضة ترافقها حركات مفعمة بالعاطفة ، حتى اذا جاوزا آخر الأكواخ أخذ يدندنبموسيقى قدسية على نغم شبه عسكرى • وفجأة وضع يده على نقرة الفتى وهو يسأله :

ـ هل تحضر دروس الدين بانتظام يا «جوان باولو» ؟

فأجابه هذا دون تردد :

ـ نعم يا حضرة الأب •

ـ وهل أصبحت تحفظ الوصايا العشر ؟

ـ نعم ، يا حضرة الأب •

ـ وهل تحترم كل هذه الوصايا حقا ، يا «جوان باولو» ؟

ـ نعم ، يا حضرة الأب •

ـ وهل تؤدى صلاتك بانتظام ، قبل النومفى كل مساء ؟

ـ فى كل مساء تقريبا •

وهنا فقد الطفل بعض رباطة جأشه ، اذ خشى أن يكتشف الراهب أنه بصورة عامة ، حين تأتى ساعة النوم ، يكتفى برسم اشارة الصليب قبل أن يغوص تحت اللحاف • وكان فى لهجة الراهب بعض التأنيب وهو يسأله :

ـ ولماذا لا فى كل مساء ؟

وحينئذ أخذ الطفل يشرح فى استحياء كيف يعود أحيانا الى البيت ، بعد نشاطه طوال النهار ، وقد بلغ منه التعب كل مبلغ ،

فيغفو دون أن يقوم بهذا الفرض الديني ، ودون أن يشكر الله على نعمته اليومية ، ودون أن يوصيه خيرا بروحه وجسده اذا ما ناداه الرب الى جواره على حين غرة •

أما الحقيقة فكانت مختلفة بعض الشيء • الحقيقة هي أن «جوان باولو» كان حريصا على أن ينام كل يوم قبل أن يأوى أبواه الى فراشهما ، مخافة أن يجفوه النوم ويدهمه الأرق اذا لم يفعل، بسبب «السمفونية» الكئيبة التى تثير بجلبتها الغامضة الاضطراب في جو الكوخ • ففى قلب الليل يستيقظ الطفل فزعا على أصوات غريبة تسحبه من أحلامه : أصوات الريح التى تجأر فى الخارج وتنسرب عبر شقوق الكوخ ، وتصفر ولا ألف مزمار ، والمطر الذى يطبل على السقف القش ، والماء الذى يسقط من المزاريب ويفرقع على الطين ، وأصوات الحوار المجنون الذى يرتفع من كل مكان بين الضفادع والصراصير ، والكلاب الجائعة ، والخنازير التى تنخر وهى فى منامها تحلم بفتيت القمامة •• على أن الأصوات التى كان «جوان باولو» يخشاها أكثر من سواها ، والتى تطرد النوم نهائيا عن عينيه ، كانت تلك التى يفرزها الليل فى داخل الكوخ نفسه: كانت شخير أبيه الجاف المبتسر،ونعيق أمه اللاغب المتقطع،وكانت بصورة خاصة تلك الأصوات غير المهذبة التى تفلت من الجميع بين الحين والحين،رياحا تخرج من بطونهم المنفوخة،المتوسعةبالغازات التى يملؤها بها خليط لحم السراطين ودقيق « المانيوكا » غذاؤهم الأساسى اليومى . فتلك الانفجارات المتعددة الألحان كانت تطغى على كل الأصوات الأخرى ، حتى على أرفع جأرات علجوم الضفادع ، الذى كان كأنه العازف المنفرد فى هذه الجوقة الموسيقية الليلية.

وهذا كله لم يكن « جوان باولو » يستطيع أن يتحدث بأمره مع الراهب ، ولا سيما ذلك الصوت غير المهذب ، صوت الرياح الآدمية . ولطالما أوصاه أبوه أن يحتاط حتى لا يند عنه مثل هذا

الصوت أمام حضرة الأب . وهذا هو السبب الذى يجعله ، خلال نزهاتهما المشتركة ، يمشي على حذر ، تلك المشية التي يصفها الغلمان بأنها « مشية من يحبس ضرطة » • ولذلك أيضا اكتفى بأن يقول للأب « أريستيد » انه ، حين لا ينام جيدا فى ليلة، كثيرا ما يحدث له أن يغفو فى الليلة التالية دون أن ينتبه لذلك ، ودون أن يتسع وقته لأية صلاة .

وكانت الأرض كالمصفاة ، مملوءة بجحور السراطين • وفجأة توقف الراهب وقال : « سنبدأ هنا ، ياجوان باولو » ، بينما كان يضع سلته على الأرض ويرفع كمى جبته • ثم أخذ يقرع طبله ليقلد هزيم الرعد ويصفر بشفتيه ليقلد هرهرة الريح • ثم أشار الى معاونه فأخذ هذا يسكب الماء من مسقاته فى جحر « الغوايامو » فيغادر السرطان ملجأه وقد أفزعته العاصفة ، وحينئذ يلحق به « جوان باولو » ويطب على الأرض ليقبض عليه بملء يديه •

وظلت العاصفة طوال الصباح تزمجر فوق السهل ، حتى اذا كانت الظهيرة عاد الراهب الى بيته ليأكل ، ووجهه قد أنضجته الشمس ، وجبته معفرة بالتراب ، ولكن سلته يملؤها « الغوايامو » فاذا دخل منزله وضع السراطين فى قفص بناه لها فى قعر الدار ، حيث لن تلبث « آنا » العجوز أن تعلفها ببقايا الطعام • ثم جلس الى المائدة ، وقد عقد من حول عنقه فوطة كبيرة ، وعلى وجهه ابتسامة جذلى يستقبل بها الدجاجة الهندية المشوية ، دجاجة الشهيد « سان سيبا ستيان » • ولكنه ، قبل أن يفتك بالطائر ، وولاء لعادته العزيزة القديمة ، يبدأ بطبق من « الغوايامو » المحشو ، الذى يماثل درعه فى زرقته زرقة الطبق الخزف الذى يأكله فيه.

٤

أما بعد الظهر ، فالعمل الذى كان « جوان باولو » يقوم به فى منزل الراهب كان بعيدا كل البعد عن مسرات عمل الصباح ، حين يذهبان معا لصيد السراطين على ضفة النهر . فلقد كان في الصباح ، وهو يشارك فى اصطناع العواصف لاصطياد « الغوايامو » ، يشعر بنفسه ينمو ، ويحس أن قامته تستطيل حتى تماثل قامة واحد من أبطال تلك الحكايات التى كان يرويها له صديقه « كوسمه » ، حكايات المعارك الرهيبة للفوز بالكنوز الأسطورية ، والصراعات الدامية مع أعداء ليست لهم وجوه ترى ومع وحوش عملاقة خارقة للطبيعة . وكان يحدث أحيانا ، فى خيال « جوان باولو » ، أن تنتفخ السراطين ذاتها حتى تغدو وحوشا عملاقة ، قادرة على ابتلاع رجل بأكمله ، كأفاعى «الأمازون» التى يزعم « كوسمه » أنها تستطيع أن تبتلع ثورا ثم تقضى شهرا فى هضمه . حتى اذا قضت السراطين وطرها من ابتلاع الرجال ، انصرفت فى طمأنينة تخفى ضحاياها فى صندوقة درعها الضخمة ، وقوادمها العملاقة مطوية ، مستعدة للانبساط لدى أية مفاجأة . ومن حسن الحظ أن « جوان باولو » كان هناك ليناضل نضاله المظفر ضد تلك الوحوش الخيالية الخارقة للطبيعة ، وليحرر الرجال من سجن تلك الصناديق الحية .

ولكن ، ما أن ينقضى صباح « جوان باولو » ببطولاته ، حتى تعاوده المذلة فى أعماله بعد الظهر – ككنس الدار ، وتلميع الأثاث ، وازالة خيوط العنكبوت عن السقف – فيشعر بتضاؤله وبأنه قد عاد طفلا يسكن الكوخ ويخدم فى منزل الراهب . وحينذاك ، ينجو « جوان باولو » بنفسه من التمرد بأن يطلق العنان لخياله ، ويدع يديه وذراعيه تمارس هذه الوجائب الحقيرة بينما ينطاق بفكره الى مكان آخر ، فيرحل مع صديقه « كوسمه » – وكأنما يعيره قدميه – ليجول معه مرة أخرى فى الأماكن التى عرفها من قبل ، تلك الأماكن التى كانت المغامرة فيها حياته اليومية والتى أصبح خياله الآن يخلق منها أماكن سحر وأساطير ..

و « كوسمه » كان دائما رفيق مغامراته ، وهو الذى ألهب خياله منذ بداية لقائهما الأول ، قبل ذلك بثلاث سنوات ، ومنذ ذلك الحين لم تزدد صداقتهما الا حمة . حدث ذلك اللقاء فى يوم كان « جوان باولو » يلعب فيه بطائرة من الورق على ضفة المستنقع ، فاذا شعاع من النور يضربه على وجهه ويلاحقه فى اصرار ، فاتجه الى البيت الذى يصدر منه هذا الشعاع ليعرف سره ، وطائرته تحت ابطه . على أنه أول الأمر لم ير شيئا ، فقد كانت النافذة أعلى منه ، ولكن صوتا دعاه للدخول ففتح الباب ، واذ ذاك رأى على سرير من الخشب رجلا نحيلا ، معروق الذراعين والساقين ، ذا رأس ضخم تتدلى منه لحية بيضاء . ولم يكن « جوان باولو » قد رأى قط من قبل مثل هذا الرأس تأثيرا فى النفوس ، الا على صور القديسين فى كنيسة « آفوغادوس » ، فأخذه الخوف ، ولكن الرجل ابتسم له وأقعده على مصطبة الى جانبه ، وقال له انه لم يناده بمرآته الا ليسمر قليلا معه ، ثم سأله أين يسكن ومن أبوه ، وأبدى الاهتمام بحياته وبألعابه ، فما انقضت ساعة حتى كانا قد اصبحا صديقين لا ينفصلان .

وطاب « كوسمه » من «جوان باولو» أن يأتيه ، كلما استطاع ذلك ، بما يعثر عليه فى المدينة من صحف قديمة ، فاستغل الولد هذا الطلب ليكثر من زياراته للصديق المشاول . كان يقوم بجولة تفتيشية على صناديق القمامة أمام منازل الأغنياء ؛ وعلى مقاعد الحدائق العامة ، ثم يمر بالصيدلية وبالمخبز اللذين يستقبله صاحباهما بالترحاب ، وبعد ذلك يصل الى منزل « كوسمه » ، مشرق الوجه ، محملا بغنيمته . وكان فى البداية يحسب أن صديقه يحتاج الى كل هذا الورق ليغطى جسده الكسيح فى الليالى الباردة ، ولكن « كوسمه » لم يلبث أن أفهمه الحقيقة ، وقال له ان المرآة والصحف كانت لديه سواء ، وان هذه كتلك تتيح له أن يبقى على اتصال بالحياة ، وعلى علم بأحداثها . فأما المرآة فيرى بفضلها الحوادث القريبة منه ، فى العالم الصغير من حوله . وأما الصحف فهى دليله الى ما يجرى فى العالم الأوسع ، فى المدينة ، وفى كل المدن الأخرى .

وكانت هذه الزيارات هى التى أخذ « كوسمه » يروى فيها لصديقه الصغير ما عرفه هو نفسه من مغامرات . كان هو الآخر ، مثل « جوزيه — لويس » ، قد ولد فى « السرتون » ، فى قرية من منطقة « سيريدو » التى تنتج قطنا يقال انه أطول « تيلة » من القطن المصرى ، مع أن هذا مشهور بطوله منذ الفراعنة . وكان فى طفولته قد عمل خادما فى مدرسة حكومية ، كان يحضر كل دروسها ، فاستطاع أن يتعلم ، ثم لم يلبث بعد حين أن التهم كل ما فى مكتبتها من كتب ، وقد أصبحت المطالعة هوايته الملازمة . فلما بلغ الشباب أخذ يعمل فى قريته كبائع القطن ، ثم اتسع عمله فأنشأ محلجة صغيرة ، وأخذ يشترى قطن المنطقة ثم يعيد بيعه للخارج . ولكنه ، برغم نجاحه ، لم يلبث أن اضطر الى مغادرة « السرتون » . لم يكن الجفاف هو الذي طرده من قريته (اذ كان

قد استطاع المقاومة مدى بضعة مواسم مجدبة) ، بل كان شيئا آخر أشد رهبة . قال لجوان باولو :

ـ انه الاحتكار ، هذا الوحش الأكثر عتوا من أى قحط ، فالقحط يأتى ثم يذهب ، والناس الذين طردهم لا يلبثون أن يستطيعوا العودة الى أرضهم . أما الاحتكار فلا : انه يأتي ليقيم ، ثم لا يذهب أبدا من بعد .

ولكن « جوان باولو » لم يفهم ، وحسب أن الاحتكار نوع من الأمراض الشريرة ، واذ ذاك أخذ صديقه يروى له حكايته كلها فى أناة .

كان ناجحا فى أعماله ، يقوم بأسفار الى الضواحى فيشترى القطن من المزارعين ، ثم يحلجه ويبيع خيوطه وبذوره فى العاصمة . وكان يحب مهنته ، وتلك الرحلات التى كانت تسمح له بشراء كتب كثيرة . ثم جاء يوم ظهر فيه فى المنطقة أناس فى ثياب أنيقة ، قادمون من سان باولو ، أخذوا يشترون قطن المزارعين بأسعار أعلى كثيرا من تلك التى كان يستطيع دفعها ، وأعلى فى الوقت نفسه من الأسعار الجارية فى السوق . ولقد جازف مرة فدفع مثل أسعارهم ، ولكنه حين ذهب الى « ريسيف » ليبيع القطن والبذور لم يستطع أن يحصل الا على مثل أسعاره القديمة ، فلحقت به خسارة كبيرة . ولقد حاول طوال موسمين أن يكافح ضد تجار الجنوب هؤلاء ، ولكنه اضطر أخيرا الى الاعتراف باستحالة أية منافسة . وفى الوقت نفسه لم يكن يستطيع أن يفهم كيف يملك منافسوه أن يتاجروا على مثل هذه الأسس ، فحاول أن يتصل بهؤلاء السادة الجدد فى سوق القطن . كانوا أناسا جد مهذبين ، وقد استقبلوه بكل مودة ، ولم يكتموه حقيقة أهدافهم ، بل أبلغوه أنهم يعملون لحساب شركة أجنبية كبرى متخصصة فى استيراد القطن ، قررت أن تمد نشاطها الى الشمال الشرقي ،

ولكن الشركة كانت لا تريد منافسين لها ، ولذلك بدأت تبعدهم من طريقها ، حتى ولو كانوا تجارا صغارا مثل « كوسمه » . وكانت وسيلتها الى ذلك أن تدفع للمنتجين ثمنا يفوق أسعار السوق، مما لا طاقة عليه لصغار المشترين . وصحيح أن الشركة تخسر بذلك من مالها مدى سنتين أو ثلاث سنوات ، ولكنها في الوقت نفسه تقضى على السوق المحلية للقطن وتبقى وحدها فى الساحة ، واذ ذاك تستطيع أن تفرض السعر الذى تريد . وكان هؤلاء السادة مخلصين فى نصح « كوسمه » بأن خير ما يفعله هو أن ينسحب من السوق ، بل وافقوا بفضل الصداقة التى وطدها معهم على أن تشترى الشركة منه معمله الصغير . وهكذا وجد « كوسمه » انه أصبح بلا خيار ، فاضطر الى الخضوع والى مغادرة «السرتون» قبل أن تذوب ثروته الصغيرة فى صراع مع الاحتكار لا أمل وراءه ، فباع معمله للشركة ، وهاجر الى العاصمة « ريسيف » .

على أن « جوان باولو » ظل برغم هذا الشرح كله قاصرا عن الفهم ، اذ كيف لم تدفع الحكومة عن « كوسمه » أذى هذا العدو العملاق ؟ وقد أجابه صديقه بأن لهذا سببا بالغ الوجاهة ، وهو أن ممثل الشركة فى الشمال الشرقى كان ابن حاكم الولاية نفسه: أحد الذين يأكلون دون خوف فى راحة العدو العملاق .

وفى « ريسيف » قرأ « كوسمه » فى الصحف أن روح الاقدام والشجاعة كانت قد أصبحت بابا للاثراء العاجل فى منطقة «آكرى» اذ كانت أوربا فى حرب والكاوتشوك فى أعلى أسعاره ، وكان اذ ذاك وقفا على تلك المنطقة . وانساق « كوسمه » الى اغراء المغامرة ، برغم أن عددا من ذوى العقل الراجح حاولوا ثنيه عن عزمه . الأستاذ « غلير مينو » مثلا ، عرابه العجوز ، حذره قائلا : « لا تذهب الى آكرى . انها كالعالم الآخر ، الذاهب اليها لايعود » . ولكن « كوسمه » كان شابا وطموحا ، فذهب . ذهب اليها وعاد منها .

ولكنه عاد محطم الجسم ، قعيدا الى الأبد ، محكوما عليه أن يلزم فراشه حتى الموت ، يجتر فى أسى ذكريات مغامرته أمام الطفل الذى استيقظ خياله :

ــ رحلت من « ريسيف » على باخرة تابعة للشركة الساحلية ، حتى « بيليم دو بارا » . ومن هناك صعدت النهر العظيم فى مركب ذى دواليب ، حتى « ماناوس » . وقد اجتزت هذه المناطق المائية مع آخرين من أهل الشمال الشرقى طردهم الجفاف ، فكنا فاغرى الفم دهشة أمام كل هذا الماء فى كل مكان ، نحن الذين لم نكن نجـــد فى « السرتون » نقطـــة منه . ولم يقتضنى الأمر أن أذهب حتى « آكرى » ففى « ماناوس » ذاتها واتتنى الثروة . ذهبت فى احدى شعب النهر مع عدتى ومعى رجلان ليساعدانى فى جنى الكاوتشوك ، فلم ألبث أن اغتنيت سريعا ، وأخذ المال الذى كان قد بقى معى من تجـــارة القطن ينجب أولادا ويتمدد كما لو كان شريطا سائلا من الكاوتشوك . وبين يوم وليلة ، أصبحت رجلا ذا شأن . أصبحت يدى لا تمس الا الأطعمة المستوردة من أوربا لحما وخضرا وفواكه محفوظة ، ونبيذا معتقا وحلوى . كان كل ما يستهلك فى المنطقة يرد اليها من أوربا : من انجلترا كانت تستورد اللحوم والخضار الجــافة ، ومن فرنســا كانت تأتينا الخمــور و « الشامبانيا » ، وكذلك المغنيات اللواتى كن يظهرن على مسرح « ماناوس » ، ونساء بولونيا كن يملأن المواخير . أما منطقتنا فى « الأمازون » فلم تكن تنتج الا الكاوتشوك . لم يكن أحد فينا يعنى الا بجنيـــــه ، وباعداده ، وببيعه بالثمن العــــالى ليغتنى بأسرع ما يستطيع .

وشعر « كوسمه » ، وهو يرى بريق نظرات الطفل ، أن هذا كان شغوفا بمعرفة بقية المغامرة ، فملس لحيته المنتفشة بأصابعه الناحلة ، وتابع يقول :

ـ على أن الكارثة كانت أسرع الى منطقة « الأمازون » من الثروة التى بلغتها . كنت أحسب نفسى سيد العالم بينما كان هذا العالم ينهار . وكنت أعيش اذ ذاك مع بولونية شقراء تدعى « جانين » لها شامة تزين شفتها العليا . كانت امرأة رائعة ، وقد أهديتها كثيرا من الأثواب الحريرية ، وعقد لؤلؤ ذا ثلاثة صفوف اشتريته لها من متجر اليابانيين . وكنت أتردد على ملاهى المدينة وأشعل «سيجار» أصدقائى بأوراق نقدية من فئة ٥٠٠ « ميلريس » (١) . هذا مع أن كبار تجار الكاوتشوك ، لدى وصولى الى « ماناوس » ، كانوا يكتفون باشعال السيجار بأوراق من فئة ٥٠أو ١٠٠ ميلريس . أنا الذى جعلهم يرفعون مستوى حياتهم .. كنت أسبح فى الذهب ، سعيدا سعادة الملوك ، واثقا من نفسى مطمئنا الى المستقبل .

« ولكن ، ذات ليلة ، بينما كنت خارجا من أحد الملاهى ، شعرت فجأة أن الأرض تميد تحت قدمى . وفى بداية الأمر عزوت ذلك الى اكثارى من الشامبانيا ، وظننت أن الكحول هو الذى يدفع الوهن فى ساقى . ولكن لا ، لم يكن افراطى فى الشراب مصدر مرضى ، بل كان « البيريبيرى » ـ هذا الشلل الناشىء عن الافتقار الى الغذاء الطازج ـ هو الذى يصعد فى ساقى ويستولى على جسدى ، وهو الذى طرحنى تلك الليلة فى فراش كان محكوما على الا أغادره بعد ذلك . وما كان فى وسعى ، وأنا سيد العالم ، أن أتصور أنى قد أسقط ذات يوم ضحية لهذا « البيريبيرى » . صحيح أننى كنت أعلم أن ألوفا آخرين من العاملين بالكاوتشوك كانوا قد أصيبوا بهذا الداء ، ولكن العلم كان اذ ذاك مايزال يجهل طبيعته . أما الآن فقد أصبح معروفا أنه هو الآخر مرض من أمراض الجوع .

---

(١) « الميلريس » (أو الكروزيرو فيما بعد) هو وحدة العملة البرازيلية ، وكان فى الاصل ووقت بداية أحداث هذه الرواية ، يعادل الدولار . (المترجم)

« وحتى أنجو بجســدى من التعفن فى أرض الكاوتشوك ، بادرت سريعا الى الهرب من جهنم الخضراء تلك . اشتريت مقعدا على عجلات من محل « أنطونيو مندس » ، بائع الأثاث الذى جمع ثروة ضخمة من وراء بيع المقاعد التى كان يصنعها بباهظ الأثمان للتجار المصابين بالشلل . ثم رافقت حشدا من زملاء النكبة على مركب آخر ذى دواليب حملنا عبر النهر فى طريق العودة . كان الخدم يدفعون مقاعدنا الى سطح المركب ، ثم نبقى هناك اليوم كله نبكى كوارثنا وننوح على مصير أحلامنا . فلقد كنا ، نحن أصحاب الملايين القدماء ، قد انقلبنا الى مجرد كوم من الحطام البالى ،على ظهر هذا المركب العائد بنا الى البلد نجاة بجلودنا ، وقد صارت كل آمالنا الى هباب » .

وروى « كوسمه » أنه حين وصل الى « ريسيف » عرض نفسه على كل أعلام الطب ، فقالوا له انه مصاب بتسمم مصدره الكحول والأغذية الفاسدة ، وان علاجه فى الاقلال من الطعام ما أمكن ، فى محاولة الصيام الدائم . وهكذا أخذ يصوم ، بينما كان الأطباء يأكلون كل الثروة التى جمعها بالعذاب والمغامرة ، حتى ذابت ثروته هذه كما ذابت من قبل عضلات ساقيه .

وأضاف « كوسمه » ، وهو يلعب بالمرآة الصغيرة فى راحة يده :

ـ اذا كنت قد انتهيت الى هذا الحال ، ملقى على هذا السرير كالخرقة البالية ، فما أستطيع أن ألوم الا نفسى . صحيح أن البؤس طردنى من « السرتون » وصحيح أن افتقاد الأغذية الطازجة فى منطقة « الأمازون » أفنى ساقى . ولكن ما دفعنى أن أذهب الى هناك ، وما كان السبب الحقيقى لتعاستى ، هو الجشع ، هو رغبتى المهووسة فى أن أجمع أكثر ما أستطيع من المال فى أقصر وقت ممكن .

هكذا عرف « جوان باولو » حكاية مغامرات « كوسمه » فى كل تفاصيلها ، فاذا هو يزداد اعجابا به واذا هو أكثر لهفة لمعرفة المزيد . ولم يكن « كوسمه » فى حاجة الى أن يلحف عليه بالسؤال ، بل كان يروى له كل شيء . لم يقتصر على تحديثه عن روائع الأراضى التى جابها هو نفسه على قدميه ـ فى منطقة «الأمازون» ـ بل حدثه أيضا عن تلك التى استكشفها من خلال الكتب ، والتى أصبح لا يكاد يستطيع تمييزها عن تلك التى عرفها معرفة مباشرة . وكان « جوان باولو » كأنما يلتهم كل أقواله فى شره . فلقد كان « كوسمه » فى نظره الها من نوع آخر : كان يعرف كل شيء وكان مقدسا كل ما يقوله . بل كان هذا أيضا رأى كل سكان القرية ، الذين كانوا يعجبون بحكمته ويرون فيه « دماغ » الجماعة ، هذا الدماغ القادر على حل كل المشكلات وعلى شرح كل ما كان يبدو عصيا على الفهم لدى الآخرين . وبقدر ما كان ينقضى الوقت ، بقدر ما كان جسم « كوسمه » يزداد ذبولا ، كان عقله يبدو أكثر نموا ونضجا ، ومعه علمه . كان يبدو لهم ، فى كوخه المنعزل الضائع بين الأدغال ، وكأنه على صلة مباشرة ومستمرة بالعالم كله ، وكأن كل ما يجرى فى أى مكان يبلغه على الفور بفضل سائل سحرى مجهول . بل لقد كان يعرف ببعض الأمور حتى قبل أن تحدث ، ووصفه كثيرون بالكهانة ومعرفة الغيب . كان قبل ذلك بعام ، مثلا ، يسمر مع « زيلويس » ، فتنبأ أمامه بأن « روزا » ، أخت « ماتيو الأحمر » ، ستحمل قريبا بطفل . ثم أضاف بابتسامة أنه واثق أن هذا الطفل سيحمل الكثير من ملامح « سيباستيان » . هذا مع أن أحدا لم يلحظ تغييرا ما فى حياة « روزا » . ثم لم تمض أشهر قليلة حتى بدأ بطنها يتكور . وقال الناس ان « كوسمه » ساحر ، ولكنه كان ينفى ذلك عن نفسه ويوضح لهم أن مرآته تروى له ألف حكاية لا تراها أعين الجيران . وكذلك حدثت جريمة رهيبة : فذات يوم عثروا على « جوليو »

الخلاسى ، ملقى على حافة المستنقع وقد طعن بسكين فى أسفل بطنه . ولم يكن أحد يعرف قاتله ، الا « كوسمه » فقد شهدت عليه مرآته .

... وسمع « جوان باولو » صوت الراهب يناديه من قاعة الاستقبال ، فترك مكنسته مسندة على حائط صحن الدار ودخل على عجل ، واذ ذاك أرسله الأب « أريستيد » لينادى قيم الكنيسة فيقرع الجرس على الفور . فلقد أبلغوه أن الآنسة « كلوتيلدا » ، رئيسة جمعية « أبناء مريم » ، قد ماتت فجأة . وكانت احدى دعائم كنيسة « آفوغادوس » ومحسنتها الكبرى . فلابد أن ينعاها الجرس على الفور وبأقوى ما يستطيع .

ولكن « جوان باولو » ذهب يبحث عن القيم على الكنيسة فلم يجده فى منــزله ، اذ كان « فيريموندو » قد ذهب الى المدينة ليشترى شموعا من أجل صلاة اليوم السابع على ميت آخر . وحينئذ سأل الراهب « جوان باولو » هل يســتطيع أن يقــرع الجرس ، فأجابه الغلام انه قد اعتاد ذلك ، اذ كان « فيريموندو » كلما عافت نفسه العمل يصعده الى الجرس لينادى المؤمنين الى الصلاة . أما جرس النعى فقد قرعه من قبل اثنتى عشرة مرة على الأقل . واذ ذاك كلفه الأب « أريستيد » أن يقرعه مرة أخرى ، من أجل روح الآنسة العجوز « كلوتيلدا » .

وصعد « جوان لويس » الى الجرس . وكانت المدينة ، فى ساعة المغيب تلك ، تبدو له من أعلى البرج وكأنها ارتدت كلها ثوبا بنفسجيا . وكانت المنازل ، فى أحد الاتجاهين ، تزداد ضخامة وارتفاعا برغم المسافة ، حتى تصل الى ناطحات السحاب فى قلب المدينة . كذلك كانت أجراس الكنائس الأخرى أضخم ، وأبراجها فى أحياء « ريسيف » الداخلية . أما فى الاتجاه الآخر فكان الأمر على العكس ، اذ كانت المنازل أخفض فأخفض بمقدار ما تبتعــــد عن النظر ، حتى تصير أخصاصا وأمكاء ، ثم تنتهى بالضياع تماما فى أوحال المستنقع .

اذ ذاك تراءى لجوان باولو أنه كأنما يجثم على رأسه جبل ، وأن ذروة هذا الجبل تمثل الخط الفاصل بين مساقط المياه : فمن احدى الناحيتين تنثال أنهار الثراء ، ومن الأخرى أنهار البؤس والفقر . وعادت الى ذاكرة الفتى تلك الجملة التى قالتها أمه له مرة : « هناك ، فى الجانب الآخر ، تقوم جنة الأغنياء ، أما هنا فجنة الفقراء » . وعندما أمسك بحبال الجرس ، كانت غبطته لا تخلو من بعض الخبث وهو يشد تلك الحبال لينتزع من «البرونز» قرعات غليظة من شأنها أن تنشر صوتها فى كل الاتجاهات على السواء وأن تخيف سكان المدينة الغنية كما تخيف سكان المستنقعات . فاذا كان « كوسمه » فى كوخه ، وهو يسمع جرس النعى ، سيغطى نفسه باللحاف الذى يتدثر به اذ يشعر بنسمة الموت الباردة تلامسه فجأة ، فان ذلك أيضا سيكون شأن الكولونيل « واندرلى » الذى يسكن قصرا منيفا فى « شارع السلام » والذى لابد أنه ، متى سمع القرعات الحزينة ، سيترك فى هلع شرفة القصر وسيلجأ الى غرفته مخافة أن يلقاه ملاك موته على غرة . ذلك أن « جوان باولو » يعرف أن جرس النعى يثير فى الناس ، أغنياء كانوا أم فقراء ، قشعريرة تسرى فى ظهورهم كتلك التى تحدثها لمسة السيف الباردة . بل هو يعرف أن الخوف فى قصور الأغنياء أشد رهبة ، والبرد فيها أشد بردا ، كأن السيف فيها أقرب نفاذا الى قلوب البشر .

وأخذ الجرس يقرع وحده ، بينما كان « جوان باولو » يضحك بملء فيه وهو يذكر قول « كوسمه » له ذات يوم : الأغنياء قساة القلوب ، ولكنهم رقاق الأعصاب . وحينئذ عاد يشد الحبال شدا عنيفا كأنما يريد أن يشد أعصاب كل الأغنياء الى أن تنقطع .. وظل صوت الجرس يدوى حتى المساء ، فلا يقف الا وقد هبط الليل ، الليل الذى يرخى سدوله على الموتى ويفزع الأحياء .

٥

فى الأمسيات التى يكتمـل فيها القمر ، كان الجيران يجتمعون أمام كوخ « زياويس » ليرووا الحكايات أو يستمعوا اليها . فاذا كانت الليلة باردة ، شأنها ذلك اليوم ، وكانت هناك نسمة خفيفة تحمل روائح أشنة البحر ، استدارت حلقتهم جميعا حول نار من أغصـان « المـانجريف » يستشعرون بفضلها الدفء ، ويدعمونها بجرعات نادرة من كحول القصب . أما « جوان باولو » فيسند ظهره الى جدار الطين الجاف ويأكل حتى الشبع على مائدة الحكايات هذه ، لاسيما حين يكون أبوه نفسه هو الذى يرويها ، وهو أمر لا يفعله الا فى النادر ، اذ ليس من طبعـه أن يكثر من الكلام وأن يستمرىء الكشف عما فى حيـاته من ذكريات ، بل هو يفضل الاستماع .

على أنهم فى ذلك المساء ألحـوا عليه طالبين منه أن يروى لهم كيف جاء يسكن هنا ، بين أشجار « المانجريف » فى هذه القرية العنيدة . وقد امتنع عن ذلك فى بادىء الأمر ، ولكنه لم يلبث أن أذعن ، ولعله فعل ذلك ارضاء لجوان باولو الذى كانت عيناه البراقتان لا تفارقان أباه كأنما تتوسلان اليه . هذا الى أنه كان قد وعد ابنه أن يروى له ذات يوم كيف جاء من « السرتون » الى أشجار « المانجريف » فلم لا يكون ذلك الليلة ؟

ويبدأ حديثه وهو لا تسعفه الكلمات ، ويجد عناء في الانتقال بين أفكاره وذكرياته المتشابكة بعضها ببعض . على أنه لم يلبث أن زايله الضيق وأرخى للسانه العنان فانسابت قصته كما يجرى النهر ، و « جوان باولو » في أوج سعادته :

ـ انها حكاية جوع ، حكاية لا تروى ، تاعسة فيها الأسى والهوان . ولكن ، ما دمتم تصرون ، فسأروى لكم ما عرفناه من أسى وهوان فى قحط العام ١٩٤٧ .

« كنا حتى ذلك الحين نعيش سعداء فى «سرتون كاباسيراس» .

صحيح أنها البلدة الأكثر جفافا فى كل الشمال الشرقى ، وأن الناس كانوا يعانون فيها من شح الماء ، ولكنى كنت حتى ذلك العام أجد دائما حيلة لاجتياز الصعاب . فاذا لم يبق هناك عشب أخضر أعطينا البهائم من أغصان الأشجار ، واذا نفد ما لدينا من أغصان ذهبنا بالقطيع الى أحد مراعى الجبل . أما نحن فكنا نخلط دقيقنا بمسحوق « الماكامبيرا » البرى ، وبالعيدان والجذور المقتلعة من الغابة ، الى أن نجتاز موسم الجفاف . وكان الكسب يعوضنا من قسوة العمل .

«وكنت اذ ذاك أعنى بقطيع الكولونيل «فيرجيليو ماراكاجا» وأزرع قطعة من الارض • وكان لى ، على كل أربعة عجول تولد ، حق الاحتفاظ بعجل واحد أضع عليه ميسمى • كان ذلك أجرى على عملى كراع للبقر • وكان لى منزل مريح على صغره • فكنت اذا عدت اليه بعد انقضاء النهار ، فى تلك الأمسيات الحارة فى «السرتون» ، أجد «ماريا» على عتبته ترضع «جوان باولو»•غفرانك يا رب ! لقد كنت ، كلما لمحت طفلى من بعيد بين ذراعى أمه ، ينصرف ذهنى الى تلك الصور التى تبدو فيها مريم العذراء وهى ترضع يسوع ابن الانسان •• أما ابنى البكر ،

« جواكيم » ، فكان يلعب فى فناء الدار ، فما ان يرانى حتى يسرع الى لقائى • وكان هذا كله يشعرنى بالسعادة • ولكن الحياة اسودت كلها عام ١٩٤٧ ، فى ذلك القحط الذى لم أشهد مثيلا لهوله ولا سبيلا الى الاحتيال عليه •

« كان كل شىء قد احترق : الجبل والسهل معا . وكانت الأنباء التى تبلغنا تشير الى أن الكارثة عامة . ولقد حاولت كل شىء . قضيت أياما بطولها ، من الشروق حتى الغروب ، أقتاع أشواك الصبار حتى لا يموت القطيع جوعا ولا عطشا . ولكن هذا ذهب عبثا كله ، فما انقضت بضعة أسابيع حتى بدأ الجوع يقعد الدواب ، فتتصلب أقدامها ولا تعود قادرة على السير : نفس المرض الذى أصاب « كوسمه » فى « الأمازون » . ولقد حاولت انقاذ الأبقار بربطها الى سقائل عالية ، بسيور من الجلد تمر تحت بطنها ، ولكنها ماتت على أى حال . ماتت واقفة ، ورأسها وذيلها مائلان نحو الأرض اللاهبة . وعدوت كالمجنون أبحث عن الماء ، الذى كان يبدو أنه يهرب من الناس كما يهرب الشيطان اذا رأى الصليب . فأما مياه الحوض الحجرى فقد نفدت على الفور • وأما بئر « رياتشو فوندو » ، التى كانت تعطى مياها مالحة عكرة ، فقد كان ماؤها يزداد شحا كل يوم ، بمرور الهاربين العطاشى ، حتى أصبحت أخيرا مجرد ثقب مظلم ، ليس فى قعره الا بقية من الرمل الندى الذى كان علينا أن نعصره بالمصفاة لنظفر منه بقطرة ماء . ثم وصلنا بعد ذلك الى الحجر ، والحجر لا جدوى من عصره .. حينئذ ذهبت أطلب الماء فى ينبوع عند سفح الجبل ، يبعد عنا أكثر من ميل . ولكن قوافل اللاجئين التى لا تنتهى أتت أيضا على آخر قطرة فى هذا الينبوع . وبدأنا نموت . وكان ذلك حين وقعت هذه المأساة التى أفقدتنى كل حبى لأرضى .

وتوقف « زيلويس » قليلا » يلتقط أنفاسه ، ويفرغ قدحه ، ويمسح شفتيه بظهر يده . ثم استأنف حكايته :

ـ مازلت أذكر ذلك اليوم الحزين . كنت قد قضيت ساعات احفر فى الأرض المتصلبة كالصخر ، عساى أعثر على جذر ما أو على حبة جافة من البطاطا قد تكون ظلت مطمورة فى مكان مبقلتنا القديم ، ولكنى لم أعثر على شيء ، فأقعدنى اليأس وجلست على حجر الى جانب الساقيـــة الجافة ، أنظر الى الســــهل اللاهب ، الخاوى على رحبه . كان الجفاف قد قتل كل شيء . وشعرت بقلبى يتصلب فى صدرى ، كأنه هو الآخر انقلب الى حصاة ، وبدا لى لحظة أن أستسلم ، أن أمدد جسدى المتعب على تلك الأرض الكافرة فأنام الى غير ما يقظة . ولكنى تذكرت زوجتى « ماريا » التى كانت تنتظر عودتى ببعض ما يؤكل ، وتذكرت ابنى المريض « جواكيم » ، الممدد على سرير من الأغصان الجافة ، فقطعت بعض فروع « الشكشك » البرى ، واتجهت نحو منزلى لأحاول مرة أخرى أن أخادع أسرتى عن جوعها .

ووصف « زيلوس » لجيرانه المســـتمعين صراعه ذلك اليوم مع الموت . كان نعل خفه يقرع الأرض المتكلسة بصوت كصـــوت المطرقة . وكانت الأفكار السوداء تحدث فى رأسه الموجع مثل هذا الصوت وهو يتساءل عن ذلك الجفاف متى ينقضى ، وهل سينقضى قبل أن يودى بأهـــله ، وأى الشرين أفضل : أن يموت جوعا وعطشا على أرضه ، أم أن يرحل هو الآخر ويموت عياء أو هوانا على أرض الآخرين ؟ وكان الطريق يحاذى الوادى الذى ترتفع فيه هضبة زرعت بأعواد السفرجل الجافة ، وبين الحين والحين يرى صليب من الحطب نصب اشارة الى أن هاربا مما أعياه الجوع واللغب فسقط هناك عاجزا عن أية خطوة أخرى . وكانت الشمس فى المغيب ، تغطى الأفق كله بسبيكة من الجمر فاقعة الحمرة ، فتدمى المشهد القفر ، وتبدو الأرض فى لهبها وكأنها أوسع وأكثر قفرا . فلما بلغ « زيلويس » داره سأل لفوره عن

حال ابنه ، فأجابته « ماريا » فى حزن : « ان الطفل المسكين يحترق بالحمى ويموت عطشا . لقد قضى الوقت كله يطلب الماء ، ولكن ذخيرتنا منه نفدت كلها فما أستطيع اعطاءه قطرة » .

وحينذاك وضع « زيلويس » على المائدة قبعته الجلدية وغصون « الشكشك » وأخذ اناء خرج به من جديد ليبحث عن قليل من الماء . ولما كان يعرف أنه لن يجد بغيته لدى الجيران ، فقد اتجه مباشرة الى منزل صديقه « جوكا سلغادو » ، على بعد ميل تقريبا ، ليسأله قدحا صغيرا من الماء يخفف به من غلة ابنه المريض . ولكنه طرق باب « جوكا » فانفتح لوحده ، واذ ذاك دخل ، فلم يجد أحدا ، ففهم لتوه أن الأسرة رحلت مع غيرها من الهاربين ، فأشعل كبريتة ودخل الى المطبخ ، فاذا حقة الماء تركن فى زاوية على الأرض ، مقلوبة . واذ ذاك استشعر الغصة فى حلقه ، وتصاب فمه وازداد جفافا ، وكأن الظمأ الكافر قد اعتزم أن يخنقه وأن يقضى عليه مرة واحدة . وفى عودته الخائبة ، وبينما كان يقطع الطريق المقفر ،قرر أن يرحل هو الآخر ، أن يغادر فى اليوم ذاته تلك الأرض الملعونة التى لم تكافىء كده طوال النهار بجرعة من الماء ينقذ بها طفله من الموت .

ونضح جبينه بالعرق وهو يعدو فى السهل الذى مازالت تلهبه بقية حرارة النهار، فمر بيده على شعره المتبلل ، واذ ذاك أخذ ينساق الى الهذيان ، وأخذ يحلم بوابل من المطر ، بواحد من تلك الأعاصير الرهيبة التى تسقط أحيانا على « السرتون » ، يبلل ثيـــابه ويسغم جسده حتى العظام . وبلغ من اضطرابه ، والعرق يسيل على وجهه ، أن مد يده مرتين أو ثلاثين مرات ليتأكد من وهم المطر الذى حلم به .

ودخل منزله كالمجنون وهو يصيح بزوجته :

ـ أجمعى كل متاعنا ، يا « ماريا » ، وألبسى الأولاد . يجب أن نترك هذه الأرض الملعونة . سننزل نحو المستنقعات ، فهناك لن نفتقر الى الماء .

ولكن المرأة كانت جالسة فى غرفة الطعام ، وعيناها مثبتتان على أغصان « الشكشك » ، وذقنها النحيلة تعتمد على يدها المتشنجة . وكان صوتها الهادىء البعيد كأنما يأتى من عالم آخر وهى تجيبه :

ـ لم نعد فى حاجة الى الماء . لقد مات « جواكيم » .

اذ ذاك بددت الضربة بعنفها كل أوهامه ، فلم يعد يستشعر الا حقدا رهيبا يسيطر على كل كيانه . ودخل الغرفة ونظر الى ابنه الميت : كومة من العظام ملفوفة فى غطاء ، لا يظهر منها الا عينان بيضاوان ، محملقتان ، يلقى عليهما لهب الشمعة بعض الظلال . فاستدار وذهب حتى النافذة المفتوحة على باحة المزرعة ، وهناك ، لا يزال يذكر الى الآن أنه رفع رأسه الى السماء الصافية الهادئة وخاطب ربه بقوله :

ـ مثل هذه المصيبة لا تراها عيناك . ولكنك اذا ما ارتكبنا أتفه خطيئة تحدجنا من عليائك بالنظر الغاضب .

وكان صوت « زيلويس » يزداد بالأسى اختناقا وهو يختتم قصته بقوله :

ـ كانت تلك هى المرة الأولى التى أوجه فيها خطابى الى الله دون أن أستهله برسم اشارة الصليب . وفى اليوم التالى دفنا « جواكيم » وارتحلنا نحن الثلاثة .

كانت قد أنهكته ذكرى كل هــذه الآلام ، فتوقف عن حديثه فجأة ، ولم يلح عليه أحد حين طلب ارجاء الحديث عن بقية قصة هجرته الى « ريسيف » حتى مناسبة أخرى .

٦

جاءت هذه المناسبة الأخرى بعد وقت طويل ، فى أمسية كان يحتفل فيها بتعميد واحد من ابناء « جوفانسيو » ، الذى كان يسكن كوخا من القش فى أقصى القرية العنيدة . وكان كل الأصدقاء الذين جاءوا لرؤية الطفل الوليد قد تحلقوا فى كوخ «جوفانسيو» الذى كانت أرضه مغطاة كلها بالبلاط. ولم يكن أحد من أصحاب « جوفانسيو » يدهش للترف الذى تمثله هذه الأرضية الخزفية بدلا من أرضية الطين المضروب فى المساكن الأخرى ، فقد كانوا يعرفون أن « جوفانسيو » يعمل منذ سنوات فى مصنع للخزف فى « أوليندا » ، وانه كان فى كل مساء يعود الى منزله وهو يحمل معه بلاطة . بلاطة واحدة لا يعترض على اخذها مراقب المصنع ، ولكنه استطاع بها يوما بعد يوم أن يفرش كل « غرفة الاستقبال » فى كوخه ونصف غرفة نومه . ولن تمضى أشهر قليلة حتى يكون كوخه المبلط كله قد اكتسب مظهر القصور ، ولو على مستوى الأرض فحسب .

كان « جوفانسيو » هو الذى طلب من « زيلويس » أن يتابع حكايته التى بدأها فى الشهر الماضى ، وأن يحدثهم عن الهوان بعد أن حدثهم عن الأسى . وتردد « زيلويس » كعادته ، ولكن بضع جرعات من الكحول ساعدت على فك عقدة لسانه :

ـ لقد رأيتم أننا لم نهجر أرض « السرتون » بدافع الطمع أو طلبا للثروة ، وأنى انما نزلت الى الساحل انقاذا لحياة أسرتى .

« ومع ذلك ، كان الموت لا الحياة هو كل ما لقيناه فى البداية . كان الهاربون الذين ماتوا فى الطريق من الكثرة بحيث كان يتراءى لكل منا أنه انما يسير فى مأتمه . وعلى جانبى الطريق كان عدد الصلبان أكثر من عدد الأشجار الحية . فكأنما كان الطريق يؤدى مباشرة الى العالم الآخر ، وكأن الموتى فى هذا العالم الآخر كانوا يأتون لاستقبالنا ، يتعجلون لقاءنا حتى قبل أن نبلغ النهاية .

« وكلما مررنا بقرية أو ضيعة كان الذين يحتفون بنا هم الأموات . كانت كلها قرى أشباح ، لا نلقى حيا فى أزقتها ، وأبوابها مفتحة تصفقها الرياح . وكان يبدو أن المقابر وحدها تزدهر فيها ، وأنها بجدرانها العالية وممراتها المنسقة كانت أشبه بحدائق الزينة قياسا مع قراها التى كانت قد حالت الى أنقاض من البؤس . كان يبدو أن الأموات وحدهم يعيشون ، ووحدهم يستحقون العناية ، أما الأحياء فلا يلتفت اليهم أحد » .

وكان « زيلويس » وزوجته وابنهما يسيرون مع القافلة ، أشباحا بين الأشباح . وكان الناس ينضمون الى هذه القافلة وافدين اليها من كل صوب ، هاربين بأسرع ما يستطيعون كأنما يفزعهم ظلهم . وكانوا جميعا يتجهون نحو المستنقعات والساحل ، بحثا عن الماء والطعام .

ـ أنتم الذين جئتم الى « ريسيف » من منطقة السكر القريبة لا تعرفون معنى السير فى غبار طرقات « السرتون » فى مواسم الجفاف . فالطرقات ليست لها نهاية ، والهارب يشعر فيها أن قد حكم عليه بعذاب أبدى ، وأنه برغم طول مسيره لا يتقدم حقا فى تلك القفار اللاهبة ، والشمس تسوطه فى ظهره ، والجوع يأكل

من أحشائه ، والغبار يملأ أنفه وعينيه . ان ساكن « السرتون » يأكل خبزا من عجين الشيطان .

« بعد أن سرنا أياما طويلة ، بدأنا نعثر على بعض الناس فى المنازل . كان الجفاف أكثر رأفة بتلك المنطقة ، فاستطاع كثير من الفلاحين أن يظلوا على أراضيهم . بل لقد عثرنا على أسواق فى ساحات بعض القرى ، ولكن رجال الأمن كانوا يحرسونها فى كل زاوية ، مخافة أن يغزوها الجـائعون الهاربون فينهبوا القرية ، ويقتلوا أو يموتوا من أجل حفنة من دقيق عفن .

« وذات أصيل ، بصرنا بمنزل على حافة الطريق ، والى جانبه حوض ماء ، فتوقفنا عنده . وكيف كان لنا ، بعد أن عببنا من مائه البارد العذب ، أن تواتينا الشجاعة على مغادرته واستئناف الطريق العاثر ؟ لذلك ظللنا الى جانب الحوض ، نتيه فى أحلامنا وننهل الجرعة بعد الجرعة ، الى أن احتجبت الشمس . وحينئذ اقترب منا صاحب الدار ودعانا أن نقضى الليلة تحت سقفه .

« وبعد أن تقدم الليل ، وبدأنا نومنا على أرض المطبخ ، وصل أناس آخرون وسمعنا وقع حوافر الخيل ثم حديثا وديا يتبادله صاحب البيت مع رجل آخر . وفى الصباح تعرفنا الى هذا الرجل المجهول . كان صديقا لمضيفنا ، مزارعا من سفح الجبل نزل من « السرتون » ومعه حمولة من الجبن ومن السكر نصف المصـفى ينقلها الى تاجر فى « كاروارو » . كان يدعى « شاندو » ، وكان رجلا بسيطا لا يتكلف ، فلم تلبث أن انعقدت بيننا الألفة ، وبينمـا كنا نحتسى فى المطبخ قدحا من القهوة أخذ يحدثنا عن نفسه ، فروى لنا أنه يملك مزرعة صغيرة فى « السرتون » ، ولكنها تقع فى سفح أحد الجبال فلا تعانى الجفاف ، بل تجرى فيها ساقيـــة صغيرة من نبعة دائمة الجـــريان ، لا تنقطع فى الشـــتاء ولا فى

الصيف ، وتروى أرضه وما يزرعه فيها من قصب وذرة وبقول . صحيح أن كل ذلك كان صغير الحجم ، ولكنه على ما يقول كان يكفيه ليعيل أسرته ويوفر لها حياة كريمة . ودعانا « شاندو » الى زيارته فى مزرعته لدى عودتنا الى « السرتون » فى موسم الأمطار ، فوعدناه بذلك لأننا كنا حريصين على أن نرى بأعيننا مثل هذه المعجزة : معجزة الساقية الدائمة الجرى ، صيفا وشتاء ، فى قلب « السرتون » ، ولو كانت بالكاد تكفى لرى بضعة أمتار من الأرض .. »

وبعد القهوة ، استأذن « زيلويس » من « شاندو » ومن رب الدار ، ثم خرج مع أهله من الباب الخلفى ليستأنف مسيرته . ولكن الرجل ، الذى كان واقفا على عتبة الباب ينظر اليهم وهم يرحلون ، أدرك أنهم لن يستطيعوا الذهاب بعيدا : فقد كان « زيلويس » لا تكاد قدماه تحملانه ، وقد التصقت أصابعه الدامية بحذائه . أما « ماريا » فكانت ببطنها المنتفخ البارز تشبه بطة رنقاء تمشى على بيض . فأخذت الرجل الشفقة وناداهما ، وعرض عليهما أن يحملهما معه حتى « كاروارو » . صحيح أن دوابه كانت هزيلة ومتعبة ، ولكن حمولتها كانت خفيفة ، وهو واثق أنها لن تنوء بهذه الحمولة الاضافية . وهكذا ارتحلوا جميعا على ظهور الخيل كالأغنياء : الرجل فى الطليعة ، تتبعه « ماريا » ورديفها « جوان باولو » و « جوزيه لويس » فى المؤخرة .

وكان « جوان باولو » وهو يصغى بانتباه الى حكاية أبيه ، يذكر فى جلاء هذا الفصل من رحلتهما على دواب السيد «شاندو» . بل لقد ذكر الرعب الذى أخذه مساء ذلك اليوم ، اذ كان يكاد يسقط لشدة نعاسه حين أبصر على مؤخرة الحصان فهدا ضخما يوشك أن ينقض عليه ، فصرخ بأعلى صوته ، ولكن ذلك لم يكن فهدا بل كان ذيل الحصان وقد نصبه فجأة ليستطيع قضاء حاجته

وهو يتابع سيره . وكان « جوان باولو » قد سمع الكثير عن الوحوش البرية خلال اجتيازهم للأدغال ، فأخذ منه الرعب كل مأخذ . وهو لايزال حتى الآن يذكر رعبه ذاك ، كما يذكر كيف خجل من صراخه وكيف ضحك الجميع من أوهامه ..

وتابع « زيلويس » حكايته :

ـ كنت ، وأنا فوق السلال ، ورجلاى ممدودتان الى الأمام على جانبى عنق الدابة ، أشعر أن كل آلامى ذهبت عنى . وكنت سعيدا كأننى ملك يجوب أراضيه على جواده ، بينما كان الهاربون الآخرون ينظرون الينا فى الطريق فتتسع حداقهم حسدا . وقد تغير فى نظرى كل شيء ، فأصبح الغبار أقل أذى ، وأصبحت الشمس أكثر رأفة . الا جوعنا فلم يتغير ، بل كانت الارتجاجات التى يحدثها وقع حافر الدابة على الأرض المتصلبة يتردد صداها فى بطنى فيبعث فى الخوف ضجيج أحشائى الخاوية . وباشتداد الحر أخذت روائح قوية تتصاعد من السلال التى نحملها : عن يمينى كانت رائحة الجبن الطيبة تداعب أنفى ، وعن شمالى كانت روائح السكر نصف المصفى تغثى لها نفسى . وكانت رائحة الجبن الرائب أكثر اغراء لى ففضلت أن أميل نحوها بعض الميل . ولكن جوعى كان يتزايد ويملأ فمى بلعاب مر ، ما أكاد أبصقه حتى يمتلىء به فمى من جديد ، بل يسيل أحيانا من طرفيه . ورائحة الجبن ما تألو تسكرنى وتغرينى ، تنادينى كأنها عطر نسائى صارخ ..

« وحاولت أن أقاوم . بذلت كل جهدى حتى لا أفكر الا فى طيبة « شاندو » وفى ما أسداه لنا من خدمة . فما كان ينبغى أن أمد يدى الى جبنه . واذا كان قد ائتمننى على حمولته فقد كان على الوفاء بهذه الأمانة . وأخذت بيدى قبضة من القش الذى يغطى قطع الجبن ، ويحتفظ ببعض رائحتها ، وأخذت أمصه ظنا انى أخادع به جوعى . ولكن هذا الجوع اللعين ازداد هياجا

بدلا من أن يهدأ ، وغدوت كالمجنون شبقا وشهوة . واذا أنا بما يشبه اللاوعى أمد يدى الى كريات الجبن الطرية لأتحسسها بأطراف أناملى فحسب ، لألمس نعومتها كما يلمس جسد امرأة ، فأفقدتنى هذه الحركة رشدى : لقد كان من المحتمل أن أقاوم غواية الرائحة ، ولكننى سقطت أمام غواية اللمس . وفجأة ، بينما يدى الراعشة تتلمس الجبن ، غرزت أصابعى فى كتلته اللدنة فانتزعت منها قطعة . حشوتها كلها فى فمى وأخذت أمضغها فى السر ، أكاد لا أحرك شفتى ، مخافة أن يلتفت « شاندو » على غفلة منى فيرانى متلبسا بالجريمة . وأبقيت يدى فى السلة ، متابعا تلمس كريات الجبن ، أنتزع منها بين الحين والحين قطعة جديدة . فلقد أيقظ طعم الجبن فى حلقى شهية فاجرة ، كلما ازددت ارضاء لها ازدادت صبوة ، واستعصت فلم يعد لدى لها حيلة . صعدت الشمس الى قبة السماء ثم مالت نحو الغروب وأنا لا أزال كالجرذ أقضم الجبنة . وكان يحدث أن يدير الرجل رأسه ليسألنى شيئا ما فأغلق عينى وأتظاهر أنى فى غفوة ، اذ ما كان يسعنى والجبن ملء شدقى أن أتكلم ، فكان الرجل يعدل عن الحديث . ولكنى ، فى كل مرة حاول فيها أن يكلمنى ، كنت أزداد وخز ضمير . بل لقد استطعت أن أقضى برهة قصيرة أقسمت خلالها أن أترك له بقية جبنه . فلقد كنت أخجل لمجرد التفكير بالنظر اليه وجها لوجه ، بل كان أشد ما أخشاه هو أن يكتشف أثناء وجودنا أنى ابتلعت رزقه بمثل هذه السفاهة . كنت آمل ألا يدرك الحقيقة الا فى « كاروارو » حيث كان علينا أن نفترق ، عساى وأجد حيلة أتملص بها منه قبل ذلك . ولكن ، عبثا كنت أحاول اعتزام الهرب ، فقد كنت أشعر أنى لن أكون أكثر قدرة على ترك دابتى وحمولتها منى فى الليلة البارحة على انتزاع نفسى وأسرتى من جوار الحوض الثر ومائه الرقراق » .

وضحك الجميع من حكاية الجبن هذه التى أسالت الريق فى أفواههم ، وزال « جوان باولو » بلعابه غبطة . ولكن أباه تابع يقول :

ـ وبدأت أشعر بامتلاء بطنى ، وبنعاس شديد . وأعتقد أنى غفوت فعلا ، وان كنت لا أستطيع تأكيد ذلك . المهم أنى ، على حين غرة ، شعرت أنى أطير فى الهواء كما لو أن أحدا دفعنى ، ووجدت نفسى على الأرض ، تحتحصانى . اذ ذاك لاحظت أن الحمولة ، وقد فقدت توازنها ، كانت تميل كل الميل الى الجانب الأيسر . وكان الجميع قد ذعروا للجلبة التى أحدثها سقوطى ، وصرخت « ماريا » وترجل « شاندو » ليرى ما الذى جرى . وحاولت أن أقول له ان غفوة قد أخذتنى ، ولكنى لم أستطع الكلام فى وضوح ، فقد كان الجبن لايزال يملأ شدقى . وحينئذ اكتشف الرجل كل الحقيقة ، اذ رفع الحمل ليصحح وضعه فاذا سلة السكر ثقيلة كالرصاص وسلة الجبن خفيفة كالريش . فما عرفت فى حياتى خجلا كالذى عرفته اذ ذاك ، والمزارع الحانق يصرخ فى وجهى ويصمنى باللصوصية ، و « ماريا » تبكى ، والطفل يصيح صيحات الرعب . ولما لم أكن بمن يسكت على تهمة اللصوصية ، فقد نهضت من مكانى غضبان وفى عزمى أن آخذ بخناق الرجل . ولكنى لم أستطع ، بل ظللت حيث أنا ، كالجماد ، وهو يمطرنى بشتائمه .

« ثم فرغت حصيلته من السباب ، فتركنا وانطلق مع دوابه . ولئن كنت قدعجزت عن الرد عليه ، فقد ردت معدتى نيابة عنى ، اذ ظلت حتى غابت الشمس على حافة الطريق ، أقيىء كل جبنة فى ظل واحدة من شجر « المانجو » .

٧

كانت أمسية لا تنسى ، تلك الأمسية التى عمد فيها «ايناسيو» آخر أبناء «جوفانسيو باراونا». أمسية للذكرى ، بسبب حمام الكحول الذى أغرق فيه المدعوون أحزانهم ، وأيضا بسبب ذكرياتهم التى أخذوا يروونها الواحد بعد الآخر . وسجلات المستنقع لن تحفظ حكاية « زيلويس » وحدها ، بل ان هناك أخرى غيرها كانت شديدة الأثر على نفوس المستمعين، هى حكاية « مانيكا دوكراتو » التى ستظل طويلا دون ريب موضوعا للحديث والتندر .

قال «مانيكا» يخاطب «زيلويس» :

ـ أنت قئت جوعك كله ، أما أنا فقد خرئته ، من «السرتون» حتى هذا المكان .

وتقزز الضيوف الآخرون من هذه الجملة ، وعجبوا لصدورها عن «مانيكا» وهو الذى يعرفونه دائم الوقاروالحشمة ، بشفتيه الرقيقتين ووجهه العابس المعروق كأنما قد من خشب . ولكنه مع ذلك تابع حكايته :

ـ قبل أن أقرر الهجرة من «السرتون» حاولت الانتظار حتى لم يعد لدى سبيل الى الصبر ، فبدأت بأكل كل ما كنت ادخرته من ذرة و «مانيوكا» ، ثم اتجهت بمعدتى الى الجذور فقضيت شهرا كاملا

أحفر الأرض المتصلبة المتشققة لأستخرج منها بعض النبتات البرية، فأكلت «الشكشك» و «الماكامبيرا» وجذور «الموكونيا» ، وكان يمكن أن أظل حتى الآن آكل من هذه الأقذار تعلقا بأرضي لولا العطش • فالعطش ، لا الجوع ، هو الذى طردني من «السرتون» •

وجال «مانيكا» بنظرته فى الغرفة الضئيلة النور ، كأنما يحاول أن يعيد الحياة لأطلال ماضيه ، وأن يذكر ذلك الظمأ الذى نزل بكل شيء ، بالأرض وبالحجارة ، وبالنباتات المتصلبة ، وبالدواب والبشر فغطاهم جميعا بغبار دقيق عنيد ، كأنه مسحوق الظمأ • ثم بلل «مانيكا» شفتيه بطرف لسانه ، واستأنف حديثه فى هدوء ، شأن من ليس على عجل من طى ذكرياته :

ـ ولما شعرت أن الظمأ يوشك أن ينتزع منى أحشائى ، قررت الرحيل • ونزلت مع جمـــــاعة كانت وجهتهم «سان فرنسيسكو» ليأخذوا منها المركب ذا العجلات حتى البحر • كانت رحلة جهنمية، وكان الهاربون فى الغالب على أبواب الموت ، وحناجرهم تصلبت عطشا وانسدت بغبار الطريق ، وأحشاؤهم تتأكلها كل تلك الأغذية الوحشية التى التهموها • ولكن أسوأ آلامهم جميعا كان الاسهال ، اسهال الجوع • كانوا يتغوطون على قارعة الطريق دون أى حرج ، يقطع بطونهم المغص فيقرفصون حيث استطاعوا • وكان بعضهم يحتضر فى تلك اللحظة فيسقط فى مكانه ، ويهوى جسده المتشنج فوق أقذاره • ولكن أكثرهم كان ينهض من جديد ليتابع هجرته ، وحر «السرتون» اللاهب يجفف الأقذار ويفتتها ويحيلها غبارا يصعد الى خياشيمنا ويؤجج من نار عطشنا • وكنا ، من حين الى حين ، نمر بحشود كبيرة ، هى معسكرات تجميع اللاجئين التى كانت تنظمهـا ادارة تفتيش الجفاف • ولما كنا ندرك أننا متجهون اليها ونحن مانزال بعيدين عنها ، بسبب رائحة العفونة التى كانت تحملها الينا الرياح فقد أخذت أجتنب المرور بهذه الأماكن التى كان الموت يرقب فيها ضحاياه ، وأمر بعيدا عنها على غير هدى •

وأشاعت حكاية هذه المغامرة جوا كثيبا فى كوخ «جوفانسيو» فلم يعد أحد يشتهى الشراب ، ولم تعد زجاجات الكحول تدور ولا الأقداح تتحرك ٠

ـ وفى لحظة من رحلة العذاب هذه ، وجدت نفسى بين فريق من الناس كانوا قادمين من قرية فى منطقة «سيريدو» طردتهم من منازلهم فيها الأفاعى والخفافيش النزافة ٠ كانت هذه الخفافيش بعد انقراض الدواب التى كانت تغتذى بدمائها ، قد أخـــذت تهــاجم الناس فتمتص دمهم وهم نائمون ٠ أما الأفاعى ذوات الأجراس ، التى طردها من جحورها الحر والجوع ، فكانت هى الأخرى تبحث عن صيدها فى المنازل ، مختبئة تحت الأسرة أو تحت الموائد ٠

وهنا قرأ «مانيكا» على وجوه مستمعيه بعض الشك فى روايته ، فغاظه ذلك وقال لهم بلهجة أكثر حدة :

ـ لا حرج عليكم اذا أبيتم أن تصدقونى ، ولكننى أؤكد لكم أنى رأيت بعينى آثار وخزات الخفافيش النزافة على جلود هؤلاءالناس، وأنى التقيت بينهم بامرأة كانت تبكى اثنين من أبنائها عضتهما فى منزلها حية ذات أجراس ٠ كانا طفلين توأمين ، وكانا فى بداية موسم الجفاف قد أخذا يقفان على قدميهما ويستطيعان المشى، ولكن سوء التغذية جعلهما يزحفان مرة أخرى على أربع ، وبينما كانا يزحفان على الأرض انقضت عليهما الأفعى ٠

وقد انتهى القسم الأول من رحلتنا ، بعد أيام طويلة لاهبة قلما هادننى فيها المغص ، بوصولنا الى شاطىء نهر «سان فرنسيسكو»٠ واذ ذاك صعدت الى مركب يدعى «آلاغواس» ، شهدت اسمه لدى وصولى الى رصيف الميناء مكتوبا بأحرف بيضاء على ظاهر هيكله البنى اللون ، الذى كان طلاؤه يتساقط قطعة فقطعة ٠ وكنا اذ ذاك فى «بيرابورا» ٠٠٠

فقاطعه «جوفانسيو» بقوله :

- «بيرابورا» ؟ انها قرية صديقى «جوفينال» صاحب معصرة الزيت في «آمبولى» ·

- «جوفينال» من هناك ؟ انها قرية لطيفة ، لا أستطيع أنأذكرها بسوء · بل لقد حسبت أنى سأشهد فيها نهاية محنتى·فلما صعدت الى المركب ، نصبت أرجوحة نومى على ظهره المكتظ بالمغتربين ، وبدأت أشعر فجأة أنى أصبحت رجلا آخر ، وعدت أجد لذة لطعم الحياة والمركب يتحرك ليسير بنا مع مجرى النهر ·

«ولكن تفاؤلى الواهم لم يعش طويلا · فبعد حين قرع جرس الطعام ، وهجم كل هؤلاء الجياع يلتهمون غذاءهم كالوحوش ،يأكلون بأفواههم وبأعينهم معا · ولكن قلة منهم استطاعت أن تكمل طعامها، فبعد اللقم الأولى نهض بعضهم راكضا نحو مؤخرة السفينة ، ثم تحول الأمر الى سباق بين الجميع · وحسبت فى البداية أنه دوار البحر ، ولكنى لم ألبث أن أدركت الحقيقة حين شعرت بمغصمفاجىء أعنف من كل ما عرفته من قبل ، فنهضت أنا الآخر من على المائدة أبحث عن المراحيض · وكانت فى المؤخرة ، ولكنها كانت أربعة فحسب وقد امتدت أمامها صفوف المنتظرين · ثم لم تنقض لحظات حتى نفد صبر الجميع فأخذوا يخرجون من صفوفهم ويتغوطون حيث هم ، على ظهر المركب نفسه ، وهم يستندون بأيديهم الى حافته · وفعلت مثلما فعلوا · وظللنا جميعا على هذه الحال طوال مدى الرحلة ، وقد استحال ظهر المركب سريعا الى زريبة للخنازير ، بعد أن خرب اعتياد الجذور البرية جهازنا الهضمى فلم يعد بيننا من تطيق معدته الغذاء وانقلبنا من ركاب فى سفينة الى بهائم تعيش وسط القذارات ·· وحين نزلت فى « بينيدو » نظرت مرة أخرى الى اسم المركب ، ولكنى لم أستطع تمييز حروفه بعد أن حجبتها سيور من الأرجاس انثالت من ظهر السفينة على طول هيكلها الخارجى» ·

وأخذ المستمعون يبصقون على الأرض ، وقد قزت نفوسهم لحكاية «مانيكا» وامتدت أيديهم الى أقداح الكحول يهدئون بهـــا أجوافهم ، ولكن «مانيكا» تابع حديثه فى هـــدوء ، غير عابىء بانزعاجهم ، بعد أن نظف حنجرته هو الآخر بجرعة كبـــيرة من الشراب :

- كان فى نيتى أن أبقى هناك ، قريبا من المستنقع ، الى أن يهطل المطر على «السرتون» فأعود الى أرضى فيه ، اذ لم أكن أفكر أبدا بالاستغناء عن هذه الأرض الى الأبد • ولكنى لم أجد وســيلة للبقاء فى منطقة السكر بانتظار تضاؤل الجفاف • وكان قد أصابنى الذهول لدى وصولى الى تلك المنطقة ، اذ أطللت من ذروة الهضبة التى كنت فيها على بحر من الخضرة ، فحسبت أنى أصبحت قريبا من أحد الشواطىء ، ولكنه كان فى حقيقته بحرا من قصب السكر ، يمتد الى مالا نهاية ، على مدى النظر ، مما لم أشهد فى حياتى مثل اتساعه فظللت أمامه كالمصـــعوق • وفى وسطه كان يرتفع قصر منيف أبيض الطلاء ، يقوم الى جانبه مصنع له مدخنـــة أعلى من جرس كنيسة الكرمليين • وأمام المنزل حوض كبير من الماء ، وعلى جانبه الآخر مبقلة كبيرة • وكل هذا نظيف يتلألأ فى الشمس كأنه الأرض الموعودة •• فذهبت الى المزرعة أطلب عملا، ولكنهم أجابونى أن لا سبيل الى ذلك ، وأن المالك لا يريد أن يسمع أبدا بحديث عن الهاربين من «السرتون» وقد أسخطه عليهم أن بعض الجائعين منهم نهبوا مستودعه ، فأقام عليه حارسين أمرهما أن يستقبلا الهاربين بالرصاص • بل لقد روى لى المزارعون ما هو أفظع : قالوا أن مـاء الحوض ، تحت صفائه وروعة خضرته ، كان يخفى عظـــام عدد من المساكين قتلهم صاحب الأرض انتقاما لما سلبوه من حبوبه ودقيقه• ولا ريب أنهم رووا لى ذلك ليخيفونى فلا أجرؤ على البقاء قريبـــا منهم ••

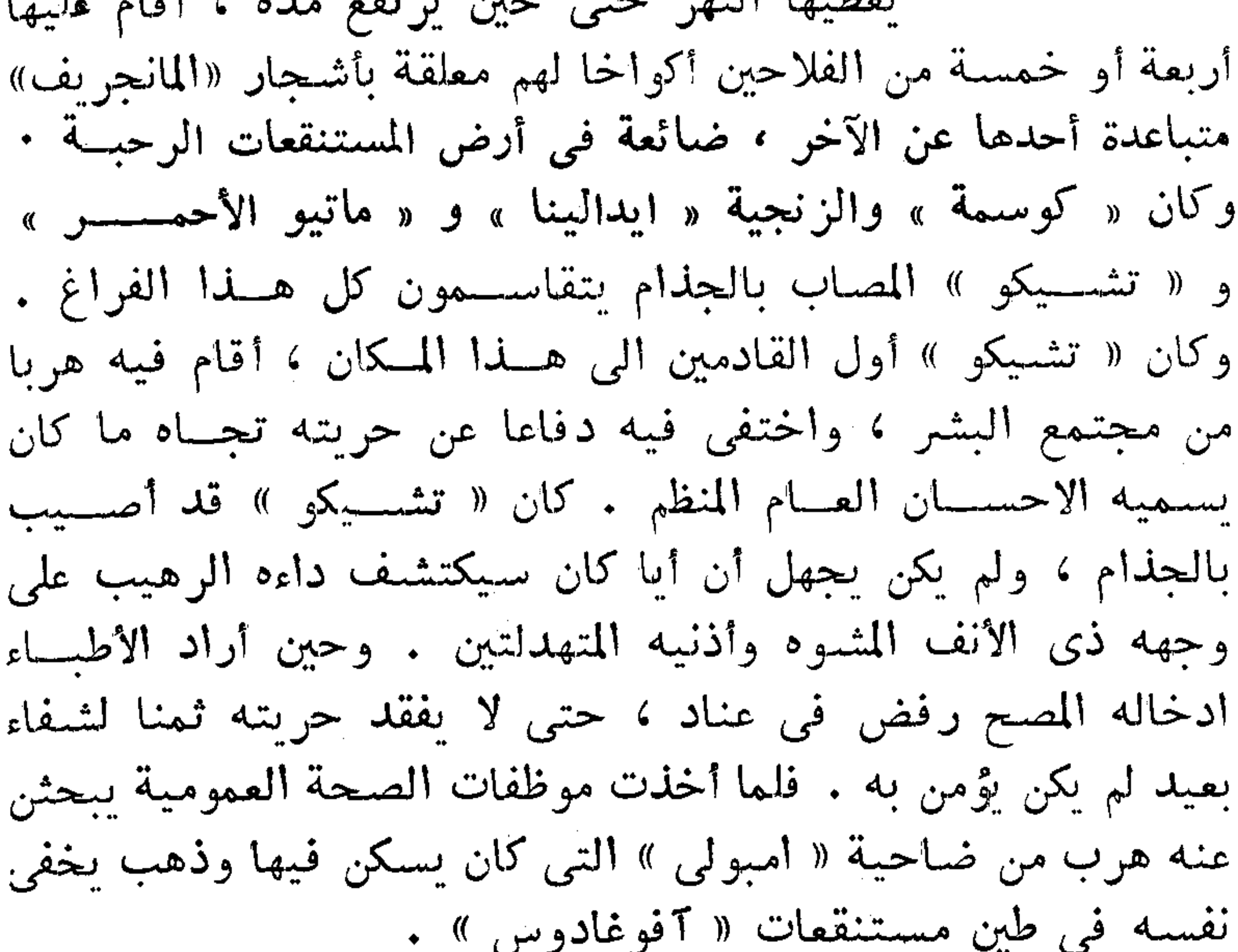
واذ ذاك قاطعه «جوزيه لويس» بقوله :

ـ لا يا «مانيكا» انهم لم يكذبوا عليك • فأنا أعرف المكان حق المعرفة وأعرف صاحب المزرعة التي تتحدث عنها • انه الكولونيل «أوسترالیانو» صاحب مصنع النجمة • وهو وحش مفترس ،اشتهر في كل جنوب الولاية • وقد علق في منزله ، في جدار الغرفة التي يحملون اليه فيها المال ، قرني ثور كبيرين ، يقول أنه يستخدمهما أداة لعقاب المتمردين ، يحقنهم بواسطتهما بالقراص المحرق والفلفل الأحمر • وهذا صحيح • فأنا أعرف اثنين من الخلاسيين كانا يعملان عنده ، فذهبا اليه يوما يطلبان مزيدا من الأجر ، ولكنهما خرجا من المصنع ومؤخرتهما لاهبة كالنار ، بسبب ما سكبوه بين أليتيهما من فلفل مذوب في الشحم المغلي •

ـ لقد أحسنت اذن بالتحوط • كنت لا أدرى ما أعمل ، ولكني ابتعدت عن ذلك القصر السيء السمعة طلبا للأمان ، وذهبت أتمدد تحت شجرة في منعطف الطريق ، فلم ألبث حتى اقترب خلاسيان كانا يحملان شخصا في أرجوحة ، فتوقفا يستريحان في ظل تلك الشجرة • فكان حديثي مع هذين الشخصين هو الذي جعلني أكره نهائيا بلد السكر وأستأنف مسيرتي لفورى الى أن بلغت «ريسيف» •

ـ وماذا قال لك هذان ؟

ـ سأعيد عليكم حديثنا كلمة كلمة ، لتروا أني كنت محقا في الهرب • سألتهما : «ما الذي تحملانه ملفوفا في هذه الأرجوحة ؟» فقالا : «نحمل ميتا» • قلت : «ومن أين جاء هذا الميت ؟» فأجابا : «من بعيد بعيد • لقد كان يسكن الجبل ، وها هو ذا منذ ساعات يتوجه نحو مقره الأخير في جوف الوادى» • سألت : «وكيف مات ؟ ميتة طبيعية أم ميتةعنيفة ؟» فقالا : «يصعب تحديد ذلك ياصديقي• انها ميتة أقـــرب الى العنف» • قلت : «بم قتلوه ؟ بسكين أم برصاصة ؟» فأجابا : «لا بهذه ولا بتلك • انها جريمة لا تتركوراءها من أثر • لقد قتلوه بالجوع ، يا صديقي» • ألا ترون في هـــذا ما يكفي لالقاء الرعب في قلب المؤمن ؟ •



حين جاء « زيلويس » وأسرته ليسكنوا « ريسيف » لم تكن « القرية العنيدة » قد وجدت بعد ، بل لم يكن فى موضعها الحالى الا حلقة دائروية عريضة من الطين الجاف لم يكن يغطيها النهر حتى حين يرتفع مده ، أقام عليها أربعة أو خمسة من الفلاحين أكواخا لهم معلقة بأشجار «المانجريف» متباعدة أحدها عن الآخر ، ضائعة فى أرض المستنقعات الرحبة . وكان « كوسمة » والزنجية « ايدالينا » و « ماتيو الأحمر » و « تشيكو » المصاب بالجذام يتقاسمون كل هذا الفراغ . وكان « تشيكو » أول القادمين الى هذا المكان ، أقام فيه هربا من مجتمع البشر ، واختفى فيه دفاعا عن حريته تجاه ما كان يسميه الاحسان العام المنظم . كان « تشيكو » قد أصيب بالجذام ، ولم يكن يجهل أن أيا كان سيكتشف داءه الرهيب على وجهه ذى الأنف المشوه وأذنيه المتهدلتين . وحين أراد الأطباء ادخاله المصح رفض فى عناد ، حتى لا يفقد حريته ثمنا لشفاء بعيد لم يكن يؤمن به . فلما أخذت موظفات الصحة العمومية يبحثن عنه هرب من ضاحية « امبولى » التى كان يسكن فيها وذهب يخفى نفسه فى طين مستنقعات « آفوغادوس » .

فى ذلك الحين ، لم تكن قد أنشئت بعد سلطات عامة منظمة تحمى حق الشاغل الأول ، فلم تلبث السبخة أن غزاها مهاجرون

آخرون جاءوا من ولايات بعيدة بحثا عن قطعة صغيرة من الأرض الحرة يستوطنونها . كانوا هاربين طردتهم مواسم جفاف أخرى ، أو بقايا بشرية حملها ريح « السرتون » اللاهب ، أو لاجئين من مزارع السكر التى يحميها القانون فلا يستطيعون فيها أن يضعوا يدهم على الأرض ، بل يحكمهم الرق والعمل المضنى فى حقول القصب ، دونما راحة ، ودون أن يسمح لهم بزرع بعض الذرة أو الدرنيات نجاة بأدتهم من الجوع . وهكذا كانت أراضى السكر تلفظ ما يفيض عنها من الناس ، فتمتصه أراضى السباخ كأنها الورق النشاف . وهكذا كانت مدينة « ريسيف » تتضخم وتتلون بهذا الطلاء المظلم الذى ينشره البؤس على الوجوه وعلى الجدران .

حينئذ سارعت حكومة الولاية الى نجدة جمال المدينة المهدد ، فقامت بحملة واسعة ضد هذا الوباء الذى يؤذى روعة عاصمة الشمال الشرقى ونبالة قصورها القديمة . ولكن حاكم الولاية ، فى حملته هذه ضد انتشار الأكواخ المزرية ، لم يبال أبدا أن يستكشف الجذور الحقيقية لهذا الداء ، مكتفيا بتوجيه اهتمامه الى تشعباتها فى أوحال السبخة ، وفى ظنه أن مجرد ازالتها سيقضى على أعشابها الضارة . ولم ينبهه أى من معاونيه الى أن تلك الأكواخ المتكاثرة ، المتفتحة بين أشجار « المانجريف » ، كانت ذات جذور تمتد فى أنحاء البلد كله ، فى صميم أسس بناه الاجتماعية التى تقادم عليها الزمن ، كثمرة لتلك الاقطاعية الزراعية التى تضطهد هؤلاء المساكين وتستغلهم منذ قرون ، حتى انتهت بجعلهم يفضلون وخم المستنقعات على تعاسة مساكن طواحين السكر ، المنتشرة بأهلها العبيد من حول مساكن السادة الجدد .

ولم تكن حملة حاكم الولاية تقصد الى مجرد هدم الأطلال المتداعية فى ضواحى المدينة أو المنتشرة على جوانب مداخلها الرئيسية ، بل كانت بصورة خاصة تهدف الى منع أى بناء جديد

لذلك النوع من الأكواخ ، بحيث لم يعد يباح الا بنـــاء منازل من الآجر ، كتلك التى تبنيها مصالح الاسكان والمخصصـــة لاقامة العمال الذين يحميهم القانون . وفات الحاكم أن سكان تلك الأكواخ ليسوا عمالا ، بل هم فى أكثريتهم الكبرى عاطلون مشردون يحتالون على العيش بمختلف السبل والحرف ، فاذا لم يجدوها عاشوا على صيد السراطين .. كانت يدهم لا تطول الا السباخ ، حيث الأرض ملك للمـــد وحده ، فاذا صعد طغي وتمدد ، وغطى كل شيء ، ثم انسحب فأخلى المرتفعات وتركها تجف . وعلى هذه الحـــدبات كان الهـــاربون يقيمـــون أكواخهم من فروع أشـــجار « المانجريف » ومن عجين الطين ، ثم يغطونها بالتبن وبقشـــور أشجار جوز الهند أو بمواد أخرى يجدونها فى القمامات . كل شيء فيها بالمجان ، يأتى من نوع من الزمالة الوحشية مع الطبيعة . وكل شيء يوفره المستنقع : سكنا وطعاما ، كوخا وسراطين . لذلك كان يستحيل على هؤلاء الناس أن ينبذوا زمالة السبخة اطاعة لتعليمات الحكومة ، فكان لابد لهم من أن يحتالوا لمداورة هـــذه التعليمات . وكان أول ما فعلوه أن عدلوا عن بناء أكواخهم قريبا من المدينة ، وأخذوا يقيمون فى مناطق أبعد ، كهـــذه التى كان يسكنها « زيلويس » و « كوسمه » و « تشيكو » ، فما لبث هـــذا الحى الذى كان قفرا بالأمس أن امتلأ بالأكواخ على صورة كان لابد لها أن تجذب أنظار الشرطة

وكان رجال الشرطة مضطرين الى الأخذ بالحزم ، فلقد تلقـــوا من السلطات العليا تعليمات صريحة بتطهـــير المنطقـــة من وباء الأكواخ ، لاسيما وقد ظهر الآن عدد من المالكين أخذوا يدعون ملكية منطقة السباخ ، التى لم تكن بالأمس ملك أحد ، بل ملك المد وحده ، وكان محض مصادفة أن هؤلاء السادة كانوا من كبار الشخصيات ، ذوى الصلة الوثقى بالحكومة المحلية . ولمـــا كانوا هم الدعائم المطلقة التأييد لهذه الحكومة ، فقد كانوا يرون من حقهم

أن يطالبوها بالتشدد فى حماية تلك الأراضى التى سجلوا ملكيتها على أسمائهم فى سجلات البحرية ، بفضل أساليب مختلفة . كان هؤلاء المحتكرون ، مثلا ، يزعمون ملكية أراض لم توجد بعد ، بانتظار أن ينشئها المد ذات يوم ، أو يسجاون على أسمائهم ملكية جزيرات بدأ ظهورها ، ولكنها لاتزال عارية لا تغشيها أية خضرة ، فهى بعد حدبات صغيرة من الطين ، وأجنة جزر طرية الجسد ، ولدت من الطمى الذى يغذى النهر ، ويعرف رجال الأعمال هؤلاء أنها لن تلبث أن تنمو ، وأن تنبت فيها شجيرات « المانجريف » فتشد من عودها وتجعل لحمها أكثر اكتنازا وتهبها هيكلا عظميا بجذورها الغليظة ، فاذا هى أخيرا جزر ناضرة ، مكينة المرسى فى المياه المخصبة . فاذا ما أثبتوا ملكيتهم لها فسيستغلونها ويقتضون الأجر المجزى عليها من أى مسكين يرفع فيها خصه الزرى . فاذا لم يستطع الدفع فليخل هذا الركن الذى رسخت دعائمه أشجار « المانجريف » وليرحل الى زاوية أخرى من الطين الذى لا يزال طريا فيعيش فى الماء مع السراطين .

وكان بين هؤلاء المحدثى النعمة عدد من الفقراء السابقين ، من أبناء المستنقع نفسه ، ولكنهم استطاعوا أن يرفعوا رؤوسهم بتعاطيهم بعض الأعمال المشبوهة ، فى نوع آخر من الوحل هو وحل السياسة . وهم قد أصبحوا الآن من ذوى الوجاهة ، لا يزع ضميرهم أى وازع عن تسميم حياة أقرانهم الذين ظلوا بؤساء ، وعن لوى أعناقهم بلا رحمة ، كما تلوى أعناق الديوك الجرحى بعد الصراع مساعدة لها على الموت . الا أنهم ، رعاية لأعصابهم المرهقة ، كانوا يوكلون الشرطة بهذه المهمة الحقيرة .

وهكذا أرسلت الشرطة مفتشين منعوا أى بناء جديد ، وزرعوا أوتادا أعلنوا أنها تؤلف الحد الذى لا يجوز لأى كان أن يبنى بعده ، وكانوا يهددون بعقاب رهيب : فاذا ما ركب الناس رؤوسهم

وأنشأوا أكواخا جديدة فالحى كله سيهدم ويحرق . ولكن الحى برغم هذا التهديد كله كان ما يألو يتسع ، ولذلك سموه « القرية العنيدة » ، المصممة على البقاء وعلى الاتساع على رغم ارادة الحكومة وتعليماتها ، وتحديا لكل قواها وأوامرها وانذاراتها .

وكانت هذه المعركة على مبلغ من الذكاء تستحق معه أن تروى. فلقد بدأ السكان باستشارة « كوسمه » ، الذى كان برهن فى كل المناسبات أنه المستشار الناصح ، فقال لهم هذا ان الحملة على حى الأكواخ كانت فى رأيه مجرد حملة عارضة ، لأنها لا تعدو أن تكون مناورة سياسية غوغائية تقوم بها الحكومة بغية كسب الانتخابات القادمة . وفى الحق أن حكومة ذلك العهد لم تكن تتمتع بأية شعبية ، وكانت فى أمس الحاجة لاكتساب بعض المهابة لدى الناس ، الذين عم استياؤهم منها بسبب ارتفاع تكاليف الحياة . والأغنياء أنفسهم لم يكونوا راضين عن حاكم الولاية ، اذ أن أعمالهم فى عهده لم تزدهر بالقدر الذى كانوا يريدونه ، وبارت تجارتهم ، ولم تكن أسعار السكر والقطن تبقى لهم فضلة كبيرة من الربح . أما الشعب نفسه فكان شديد البغضاء للحكومة ، لا سيما بعد بعض الأعمال الوحشية التى قام بها مدير الشرطة خلال اضراب للعمال فى أحد معامل النسيج ، اذ كانت كل الزيادة التى نالها هؤلاء المساكين هى ضربات العصى على ظهورهم وقضبان السجن لزعمائهم النقابيين . وكانت المعارضة قد بدأت حملتها الانتخابية مستغلة ذلك كله ، رافعة صوتها بالاحتجاج على ارتفاع تكاليف الحياة وعلى سوء حالة المساكين فى « ريسيف » ، فكانت المجاعة والأكواخ سلاحى المعركة فى أيدى رجال المعارضة .

كانت هذه هى الظروف التى عمد فيها الحاكم ــ الذى لم يجد من يرشحه خلفا له الا مدير الشرطة الذى كان يمقته الشعب كله ، ترشيحا لا يدرى سره أحد ــ الى القيام بحملة تستهدف تحسين

سمعة الحكومة ، فتحدث مع ممثلى السلطات الاتحادية ، وعبأ دوائر العمران ، وطرح مشروعا للمساكن الشعبية : لمنازل رخيصة للفقراء . على أن هذا كله ، في رأى « كوسمه » ، كان كلاما في الهواء . صحيح أنهم قد يبنون نصف دستة من المنازل على حافة أحد الطرق المؤدية الى المدينة ، ولا سيما طريق المطار ، حتى يتأثر الزائرون الغرباء بما قامت به الحكومة من أعمال ضخمة ، ولكن الباقى لن يكون له وجود الا على الورق ، ورق الخرائط الأزرق وورق الجرائد الحكومية . فاذا ما انتهت الانتخابات انتهت معها الحملة على الأكواخ ، وعاد كل شيء الى سابق عهده ، ونسيت الحكومة الجديدة الفقراء فى أكواخهم لأن كل نشاطها سينصرف الى ملء جيوب أنصارها الأكثر حمية ، ولن يتسع وقتها لأى أمر آخر .

على أن رأى « كوسمه » لم يحظ باجماع الحاضرين . فلقد كان بينهم واحد من « السرتون » ، يدعى « جانواريو » ، كان يعمل فى خدمة مساعد مدير الشرطة فى «أرياس» الذى كان من أهل الحظوة لدى رجال الحكم . وقد قال « جانواريو » ببعض الاستحياء أن الحكومة ليست على هذا القدر من السوء ، بل لعلها كانت حسنة النوايا ولعلهم يستطيعون جميعا فى وقت قريب أن يسكنوا المنازل الجديدة التى ستبنيها على طريق المطار . ولكن « كوسمه » ضحك بملء فيه من سذاجة هذا القروى المسكين الذى تنطلى عليه كل أكاذيب الحكومة ، وقال ان بناء هذه العمارات لو تم فلن يحقق الا مزيدا من الثراء للمتعهدين الذين تختارهم الحكومة ، فاذا بنيت فان أصحاب السلطان لن يتيحوا سكناها الا لأولئك الذين أعطوهم أصواتهم ، فهى اذن ليست لأصحاب الأكواخ ، ليست لهم لأنهم بلا حول ولا نفوذ ، ولأن أحدا لا يدافع عنهم . وانما هى حملة من تلك الحملات الدعائية التى يعرفها

« كوسمه » حق المعرفة ، والتي تهدف الى اكتساب الناخبين عشية الاقتراع .. وحتى ولو صدقت النوايا كما يقول « جانواريو » فان الأمر لم يلبث أن ينحرف عن قصده ، ولن يعتم الأشرار أن يفسدوا كل شيء · وأعاد « كوسمه » الى رفاقه ذكرى ما جرى للرئيس « ابيتاسيو بيسوا » : كان رجلا من الشمال الشرقي ، ولد في مدينة من مقاطعة «بارايبا» قريبة من المكان الذي رأى فيه « كوسمه » النور ·· وكان رئيسا تعمر قلبه النوايا الحسنة ، أراد انقاذ الشمال الشرقي من آفة الجفاف ، فاستدعى خيرة المهندسين في البلاد ووضع مشروعا ضخما لبناء السدود والطرق ، واشترى آلات كثيرة من الخارج وحشد جيشا من العمال . ولكن المتاعب لم تلبث أن بدأت ، وأخذ أكثر المال الذي ترسله الحكومة الاتحادية يذهب الى جيوب رجال السياسة بدلا من أن يتقدم به العمل . وبعد اخفاق ذريع وفضيحة رهيبة ـ استغلتهما كليهما المعارضة ـ ترك « ابيتاسيو » الحكم وتوقف العمل بالمشروع ، أما الآلات التي استوردت لتحفر الآبار وتشيد السدود كيما تغذي الشمال الشرقي كله بالماء فقد أهملت وسط الحقول ، حيث تحولت الى تراب كأجساد الثيران التي نفقت في موسم الجفاف .

وأخيرا انحاز الجميع الى رأي « كوسمه » ، الا « جانواريو » · وحتى « جانواريو » نفسه كان في دخيلته من هذا الرأي ، ولم يحاول مرة أخرى أن يدافع عن الحكومة وعن سيده . فاقد كان واضحا ان التاريخ يجري كما وصفه « كوسمه » ، وأن ليس هناك أي أمل في أن يستطيعوا الخروج من المستنقع ومن أكواخهم . فكان عليهم اذن أن يدافعوا عن أنفسهم بأظافرهم وأسنانهم ، حتى لا يطردوهم الى العراء بتهديم أكواخهم الحقيرة . وكان عليهم اذن أن يقرروا دون ابطاء كيف يتفادون هذه الكارثة · فتركوا الأمر

كله لحـــكمة « كوسمه » ، وقبل المستشار المشلول هذه المهمة ، فأخذ يقود من سريره كل معركة « القرية العنيدة » ، التى كان لانتصارها على قوى الحكومة والشرطة دوى ورنين .

كان القرار الأول هو أن لا تبنى أكواخ جديدة الا يوما واحدا فى الأسبوع ، أو على الأصح ليلة واحدة ، بحيث يبدأ العمل فى المساء وينتهى قبل طلوع الشمس . وهكذا كان : أخذ السكان يقضون الأسبوع كله فى تجميع مواد البناء . بعضـــهم يأتى من المدينة بألواح الخشب القديمة ، وبعضهم يأتى بصفائح المعدن والعلب الفارغة . بعضهم يقطعون أغصان أشجار « المانجريف » ، بينما الآخرون يقطعون سعوف الخوص من أشجار جوز الهند على الشاطىء ، وهم يتسلقون جذوعها كما تفعل القطط البرية . فاذا أبلغ الرقباء عن اقتراب الحراس المسلحين بالبنـــادق طار قاطعو الخوص من ذروة أشجار الجوز وتحت كل من ذراعيهم سعف يقوم مقام الجناح ، ثم حطوا كما تفعل الطيور البحرية الضخمة على رمال الشاطىء اللدنة . وكانت السعوف والأغصان ، والطين المجبول ، والعلب الفارغة ، وصفائح القصدير ، تكوم كلها فى مواقع « اســتراتيجية » معينـــة ، تحجبها أوراق من شـــجر « المانجريف » .

ثم يأتى اليوم الأسبوعى المخصص للبناء فاذا الحى كله فى هياج ، والجميـــع على حذر فى انتظار هبوط الليل ، يتوزعون الأدوار فيما بينهم : فئة منهم تشتغل ، وفئة أخرى تشترك فى حفلة الطرب التى تستهدف صرف أنظار السلطات عن مهمة الفئة الأولى . وتقام هذه الحفلة عادة فى مكان أقصى ما يكون عن الموضـــع الذى ستقوم فيه الأكواخ الجديدة ، تتخذ فيه مع غروب الشمس كل الاستعدادات اللازمة للحفلة الساهرة ، التى تضم رقصات « الباستوريل » الشعبية ، ورقصة « المـــاراكاتو » الافريقية ،

ومشهد « رقصة الثور » التقليدى . وكانت « رقصة الثور » فى الغالب هي التى تثير أكثر قدر من الحماس ، وان كانت «الماراكاتو» أكثر ضجيجا وأجدى في الطغيان علي جلبة البناء . فاذا ما اكتملت من حول الساحة حلقة النظارة ، ولاسيما من النساء ، ظهر الثور وأخذ راعيه في الغناء :

ها هو ذا ثورى الحراث
يأتى ليعرض مهاراته ،
يأتى ليدهش برقصاته ،
يأتى ينغم خطواته ..

أتى ثورى هنا يرقص
فى صحن الدار
لأن صاحب المنزل
كثير المــال ...

ويرقص الثور المــاهر ــ وهو فى الأغاب « سيباستيان » ، الذى كان يثير الاعجاب وهو يغطى رأسه بهيكل من الورق المقوى يخرج منه قرنان كبيران ــ يرقص ويقفز ويدور ويوزع التحيــات وفق ما يأمره معلمه ، وبين الحين والحين يزرع قرنيه فى ظهر أحد المتفرجين اذا كان « سيباستيان » لا يستلطفه .. ويرتفع صوت الراعى : « ايه ، بومبا ! » فيجيبه « الكورس » : « ايه ، بومبا ! هيا فارقص . ايه ، بومبا ! اتبع الايقاع . ايه ، بومبا ! » . ومع كل « ايه ، بومبا » قرعة مدوية على الطبل ، ينتهز البناؤون جلبتها ليقتلعوا أوتاد الحــدود التى وضــعها المراقبون وليزرعوها أبعد قليلاً ، خالقين بذلك مدي قانونيا جديدا للبناء . وبعد ذلك يفرزون

العمدان فى الأرض الطرية ، ويثبتون الأغصان بالمسامير ، ويملطون ذلك كله بالطين ، بينما يغطى صخب « رقصة الثور » على ضجيج البناء . فاذا حدث أن ظهر أحد المفتشين الرسميين انهالت عليه المجاملات وقدم له الثور الراقص فنون تحياته .. واذا لم تنجح اللعبة وبدا على المفتش أنه مصمم على اظهار حميته وعلى زيارة الحى ليستجلى ما يفعله أهله ، دخلت المسرح اذ ذاك شخصيات بالغة الخبرة بالدور الذى ينتظرها ، فأحاطت بمندوبى السلطة مجموعة من الفتيات الخلاسيات الجميلات ، يرشقنهم بابتسامات الاغراء ويراودنهم على نزهات خلوية صغيرة على طريق المدينة ، فى الاتجاه المعاكس لاتجاه موضع البناء . والمفتشون بصورة عامة يذعنون للاغراء وينصرفون عن مهمتهم الى مغازلة حسناوات « شبكة مكافحة الجاسوسية » التى أنشأها « كوسمه » .

وكان بين عضوات هذه الشبكة اثنتان على قدر استثنائى من الخبرة ، هما « كلوتيلدا » وصديقتها التى لا تفارقها « زيتا » ، برغم أن هذه كانت ما تزال فى مطلع الصبا . وكانتا ماهرتين فى التحايل على ممثلى قوى الأمن لرفض عروضهم الشائنة ، لا تسيران الا معا ، وتعدان بكل شيء ، وتوقظان كل الرغبات ، ولكنهما تنتهيان فى كل مرة بالنجاة بجسديهما من التجربة ، فلا تسلمان فى أقصى الحدود الا شفتيهما أو حلمة ثديهما ، وبالقدر الذى لابد منه لصرف سدنة القانون عن واجبهم .

وخلال ذلك ، كانت عملية البناء تستمر حتى الفجر ، فما يشرق النهار حتى يكون البناؤون قد انتهوا من مهمتهم ، وملأوا بالأكواخ كل المدى الجديد الذى أحدثوه بنقل أوتاد الحدود من مواضعها ، ثم أسرعوا الى اخفاء الزائد من مواد البناء ليستخدموه فى الأسبوع التالى . وحينئذ يذهبون الى الاغتسال فى النهر ، ثم ينصرفون الى النوم فى هدوء .

فاذا طلع النهار ، وأقبل المفتشون ، كان لابد أن يكون بينهم واحد أكثر تشكيكا من الآخرين تثير ظنونه بعض الأمور : فواجهات الصف الأمامى من الأكواخ مختلفة عن عهده بها ، والطين يبدو حديثا لم يجف بعد .. ولكن كل هذه اعتراضات لا جدوى لها أمام أوتاد الحدود الشاهدة ، دون مجال للنقاش ، على احترام الأوامر وطاعة السلطات .

ويقول « كوسمه » فى غبطة : « القانون يحترم ، ولكنه لا ينفذ » . وتزداد « القرية العنيدة » نموا وسعة .

٩

كبرت القرية العنيدة ، وتناثرت أكواخها على غير نظام حتى بلغت حافة الماء ، فكأنها حبات كبيرة من القرع ، سوداء ، قذف بها المد بين أشجار « المانجريف » . وأصبح يتجول فى أزقتها المتشابكة اناس لم يكن « جوان باولو » يعرفهم من قبل . ولكن المدهش هو أن « كوسمه » كان يعرفهم جميعا . لم يلتق بهم أبدا من قريب ، ولا تحدث اليهم ، ولكنه كان يعرفهم من بعيد ، بفضل صورهم التى كانت تعكسها مرآته كلما مروا على الطريق . وهى صور لا يلبث أن يستكملها بمعلومات دقيقة يستقيها من أهل القرية القدامى الذين يكثرون من التردد عليه ، يزورونه ليسمروا معه أيام العطلة والآحاد ، وينقلون اليه أنباء التطورات التى جدت على القرية ، والوجوه الجديدة التى ظهرت فيها ، وأنباء الولادات والوفيات . ثم يأتى دور « جوان باولو » فى معرفة هذه الأنباء الجديدة بفضل صديقه « كوسمه » ، الذى يروى له منها كل ما يستحق الاهتمام .

كان « جوان باولو » يعرج على كوخ « كوسمه » أصيل كل يوم ، بعد انتهائه من عمله وقبل أن يعود الى بيته ساعة العشاء ، فيتحدثان دون أن ينقطع « كوسمه » عن اصطياد الصور بمرآته الصغيرة . فاذا كان هناك ما يستحق الانتباه ، بين الحين والحين ،

لفت اليه نظر « جوان باولو » . وكانت هذه هى الطريقة التى عرف بها الغلام مأساة شخصين فى القرية كانا ، مثل « تشيكو » ، قد أتيا للاختباء فى منطقة أشجار « المانجريف » وراء الأكواخ المظلمة ، كما تختفى سراطين « الغوايامو » فى قعر جحورها · وهما « ماتيو » الذى يدعونه « الأحمر » و « ايدالينا » الزنجية .

فأما « ماتيو » فكان مخلوقا هادئا ، يقضى عمره على عتبة بابه فى نسج الشباك للصيادين . ومع ذلك فهو قد جاء الى القرية هربا من رجال الشرطة . هذا برغم أن يديه لم ترتكبا أية جريمة يؤنبه عليها ضميره ، فجريمته الوحيدة هى أنه ولد بشعر يختلف فى لونه عن شعر غيره من المواطنين : شعر بلون النار . وهو لم يعرف أبويه ، ولكن الشائعات كانت تقول انه ابن بحار ألمانى كان كثير التردد على شارع تسكن فيه بنات الهوى ، بينما كانت سفينته ترسو فى « ريسيف » . ولم يكن « ماتيو » يجادل فى صحة هذه الشائعات ، ولا هو احتج حين لقبوه بالأحمر ، وهو لا يزال طفلا ، بسبب لون شعره · بل لقد كان ذلك يشعره ببعض الزهو ، دون أن يدرى أن لون شعره سيخلق له ألوانا من المتاعب فيما بعد . وقد بدأت هذه المتاعب تعقد حياته وهو يعمل فى مصنع فى « جوبواتون » .

كانت تلك حقبة أزمات اجتماعية ، وكانت « جوبواتون » مركز الحركات العمالية ، بل النواة الرئيسية لنشاط الشيوعى فى كل البلاد ، فكانت الفئات الحاكمة لا تسميها الا « موسكو الصغيرة » ، قناعة منها بضخامة النفوذ الروسى فى هذا القطاع على أن « ماتيو » ظل بعيدا عن الاضطرابات التى كان يثيرها زملاؤه ، لا يكاد يهتم الا بنول الحياكة الذى يعمل عليه · ولكنه بطبيعة الأمور لم يلبث أن وجد نفسه وسط هذا الصراع الذى أزعج قوى الأمن وجعلها فى ذعر منه ، لما يمثله من تهديد لأمن

الدولة الداخلى ، اذ أن التحقيقات التى أجريت اذ ذاك فى الوسط العمالى تضمنت عدة اشارات الى « ماتيو الأحمر » . ولم يكن فى هذه الاشارات أمر ذو بال ، لأن كل ما حوته هو كلمة « وداعا يا أحمر » أو « الى الغد يا أحمر » ، التى كان بعض زملائه العمال يحيونه بها لدى افتراقهم فى المساء عند باب المصنع ، حيث كان للشرطة عيون . ولما كانت القبعة تخفى شعره الأصهب ، فقد تخيل رجال الأمن هذه « الحمرة » على غير حقيقتها ، واعتقدوا انه واحد من أبطال الاضطرابات ، فاستدعوه الى القسم ليعترف بعلاقاته السرية مع غيره من « الحمر » . ولكنه أنكر ، وأصر على جهله لكل شىء ، فاعتبروه أكثر خطرا وأشد حمرة مما بدا لهم أول الأمر . ومنذ ذلك اليوم أصبحت حياته جحيما : ما يكاد يمضى أسبوع الا ويأتيه رجال الأمن يستدعونه من منزله . ولا تنفجر غلاية فى معمل ، أو تطلق رصاصة فى ماخور على ابن أحد أصحاب المصانع أو يشيع خبر عن مشروع اضراب فى المدينة ، الا والشرطة لا تتصور مفتاحا يهديها الى مرتكبى هذه الجرائم المختلفة الا عنوان « ماتيو الأحمر » ، حتى أخذ يقضى أكثر وقته وراء قضبان السجن ، بعيدا عن غرفته فى ضواحى « جوبواتون » . هذا مع أن الحمر الحقيقيين كان يرون أنه على حظ من الغباء يمنعهم من اشراكه فى اجتماعاتهم أو من محاولة اقناعه بآرائهم وكسبه الى صفوفهم . فكل ما تعلمه « ماتيو » بشأن المطالب الاجتماعية يتلخص فى ما سمعه خلال المظاهرات الاجتماعية السياسية التى كانت تدور فى الساحة المجاورة لسجنه ، وهو أن الواجب يقضى بالكفاح بغية تحرير الشعب من براثن الفاقة . أما كيف يتم الكفاح ، وبأية أسلحة ، فان السياسيين الذين كانوا يخطبون فى الساحة لم يكونوا يخوضون فى شرحه ، ومن المؤكد أن « ماتيو » الملقب بالأحمر لا يزال حتى اليوم يجهل الجواب عليه .. وذات يوم لم يعد «ماتيو » يطيق صبرا على هذه المتاعب والاستجوابات المختلفة،

وعلى هـذه الاعتقالات الظالمة المتكررة ، فهجر عمله وذهب الى « آفوغادوس » يختبىء بين أشجار « المـانجريف » ، فكان بين الأوائل على هذه الأرض التى لم تلبث فيما بعد أن غزتها أكواخ « القرية العنيدة » ..

أما « ايدالينا » الزنجية فهى الأخرى جاءت تبحث لنفسـها عن ملجأ بين أشجار « المانجريف » ، ولكن لا خوفا من السجن ، بل خجلا مما جرى لابنتها « زيفينيا » . فلقد كانت « ايدالينا » دائما امرأة خير ، صادقة الوفاء بواجبهـا . صحيح أنهـا عرفت العوز ، ولكن الفقر لم ينحرف بها عن الطريق المسـتقيم . فلما زلت ابنتها التى كانت تحبها حب العبادة ، لم تطق « ايدالينا » الصبر على ذلك فهجرت المنزل المحترم الذى كانت تقطنه فى حى القلعة الى كوخ حقير بين أوحال المستنقعات .

كانت « ايدالينا » السوداء قد قضت سـنوات تربح ما يفى بأودها ، وهى تعمل طاهية لدى الأغنياء ، لأنها كانت فريدة فى طبخ ألوان المآكل ، ولا سيما تلك التى اختصت بها « باهيا » ، المدينة التى ولدت فيها . وكانت سعيدة بعملها فى منزل واحد من أعضاء مجلس الشـيوخ يسـكن حى « الدربى » ، حين نزل بابنتها المكروه . كانت « زيفينيا » جميلة جمال الشيطان ، وقد ولدت خلاسية ، ولكن مشرقة اللون عقصاء الشعر ، بحيث كانت تبدو من غير جنس أمها ، التى ابتعث لديها كل هذا الحسن الفاتن حبا لابنتهـا فياضـا ذلولا ، فعملت المسـتحيل حتى لا تعرف « زيفينيا » العسر ، ولا الجوع الذى عرفته ، ولا ظلمة الأكواخ ، وحتى لا تسير حافية القدمين كبقية بنـات الحى . وهكذا ترعرعت « زيفينيا » فى ترف كانت أمهـا الزنجية تدفع ثمنـه من كدها وعرقها أمام فرن المطبخ ، تماما كما فعل أبوها ، العبد فى مطحنـة للسكر ، اذ قضى حياته أمام الغلايات . ولكن كل ما كانت «ايدالينا»

تلزم به نفسها من تعب وحرمان ، كانت تعوضه الأمسيات التى كانت تقضيها فى منزلها ، تديم النظر الذاهل الواله الى جمال ابنتها وقد أصبحت ممتلئة مليحة ، ذات أسنان فتانة وشعر أسود ساحر .

لذلك كان هرب « زيفينيا » طعنة قوية أصابت « ايدالينا » . فلما وجدت نفسها وحيدة فى منزلها ، والجيران يعرفون كل شىء ، ويتظاهرون بالرثاء لها ، ولكنهم فى أكثرهم يضحكون منها سعداء بالفضيحة ، يتفكهون بها لدى البقال والخباز ، لم تطق مزيدا من الصبر ، فاختفت ، وجاءت تسكن فى القرية العنيدة حيث لا يعرف مأساتها أحد ، منعزلة عن الناس ، تستخدم مواهبها فى الطبخ لتتدبر كفافها بصنع « التابيوكا » و « المغربية » وبيعهما على صينية فى ساحة السلام .

وما أسرع ما اكتسبت « ايدالينا » عطف كل الجيران . لم تكن تسعى الى أحد ، ولكنها كانت تمنح مودتها للنساء حين يسعين الى الحديث معها وكانت على استعداد دائم للعون عند الحاجة : تساعد الحوامل والنوافس ، وتعنى بالمرضى ، وتتلو الأدعية لأولئك الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، تلك الأدعية التى تعرفها وحدها والتى تفتح أبواب السماء أمام المحتضرين ، حتى أصبحت غالية لدى الجميع .

وذات يوم جاؤوها بولد لتقوم على تربيته ، هو « أوسكار ليندو » ابن « زيفينيا » ، فوجدت فيه سعادة جديدة . كانت تريه لكل الناس ولا تتعب من كيل الأدمايح لأمه والحديث عن جمالها ، وتزهى وهى تعرض عليهم صورة لها وقد وضعت على رأسها قبعة ذات ريش وزينت معصمها بسوار من ذهب . ولكنها ، اذا كان الشخص الذى يسألها عن ابنتها لماذا لا تأتى لتعيش

معها فى القرية جاهلا لقصتها الحزينة ، كانت تسارع الى صرف الحديث نحو موضوع آخر ، فتتنهد وتتحدث عن غلاء تكاليف الحياة ، وعيناها تغصان بالدموع .

هكذا عاشت «ايداليينا» سنوات عديدة ، فى سلام مع ربها ، وفى وفاق مع سكان القرية . ثم أتى أخيرا يوم جدد المهانة والخزى فى قلبها ، فذهبت مرة ثانية تختفى لايدرى أحد أين . ولكن ، قبل أن يأتى هذا الحادث الدامى فيعكر هدوء المستنقع، مرت مياه كثيرة بين ضفتى «الكابيباريبى» ، تحت جسور مدينة «ريسيف» ، وحملت الأمواج الصاخبة حكايات أخرى كثيرة لقيت كلها نهايتها فى البحر ..

واذا كان « كوسمه » قد ظل فى كل المناسبات أعلى أهل القرية مكانة ، وكانت «ايداليينا» أكثرهم تمتعا بالعطف ، فلا ريب أن «تشيكو» كان أكثرهم شخصية أسطورية . كان كالشبح ، كالخرافة ، يتحدث عنه الجميع ولا يراه أحد ، يعرفون أنه موجود ولكنه يحتجب عنهم فى كوخه المظلم ذى الأبواب المغلقة دائما . فما كان أحد يستطيع الزعم بأنه ، فى زحمة الحياة الدائبة خلال النهار ، قد أتيح له أن يرى «تشيكو» خارجا من مشرب أو داخلا اليه . كان يختفى بجذامه عن أعين الآخرين ، كالوحش فى وجاره ، ماسطعت الشمس فى السماء وخرج الناس الى أعمالهم ، وكان فى جحره مطمئنا الى أن أياً من أهل القرية العنيدة لن يزعجه ولن يفكر بالوشاية به الى السلطات لتعتقله وتزجه فى مستشفى يتعفن فيه ، فأهل القرية حراص على السر ، وهو بعد لايخرج الا في الليل ولم يره الا قليل منهم وهو يمر سريعا الى النهر ، صديقه الأثير . فاذا ما انطفأت كل معالم الحياة فى القرية ، وأمست النجوم والقطارب تضىء وحدها ظلمة السباخ ، خرج «تشيكو» بقاربه الصغير الذى يخفيه فى احدى آجام الخيزران قريبا من

الشاطىء ، وذهب يعوم به على مياه «الكابيباريبى» الهادئة ، على هوى التيار حتى الفجر ، وشبكته فى الماء ، وفكره يشرد فى أرجاء الليل الفسيحة . تلك كانت ساعة هنائه ، الساعة التى يشعر فيها بأن أعماق روحه تنفتح لجمال الحياة ، لنعومة الماء الذى ينسرب بين أصابعه ، ولنظرات النجوم البعيدة ، ولسكون العالم الغافى ، فيخلو اذ ذاك الى النهر يساره ويصغى الى الآهات التى تحملها مياهه . وفى ليالى البدر وارتفاع المد ، حين يبلغ الماء أعلى مستوياته ، كان «تشيكو» يتجه بقاربه نحو الحوض الكبير ، وراء قصر الحاكم ، حيث يلتقى النهران العظيمان ، «الكابيباريبى» و «البيبيريبى» . وهناك ، فى هذا الطست الكبير الذى ينهل عليه من قرص القمر شلال من النور الفضى ، كان «تشيكو» يسلم قياده للماء الهادىء ، ويشرد بفكره الحالم بين كل المنعرجات التى يرسمها تاريخ هذين النهرين الباسلين ، اللذين يعزو اليهما سكان الشمال الشرقى روحا كروحهم مغامرة متوفزة ، فسيتعرض بخياله انحدارهما الجازع وهما يكتمان بالتعرجات شوقهما الى التلاقى .

فأما «الكابيباريبى» فهو الأطول والأبعد أصولا ، يأتى من جبل «الجاكارارا» ، فى منطقة «كاريريس» النائية ، وثابا فوق الصخور يمر بالمدن والقرى فيرون كل تقلبات الحياة فى « السرتون » : فهو أحيانا ذلول متطامن ، اذا جاء موسم الجفاف والفاقة ، فما يجرى فى مسيله اللاهب الا خيط رفيع من الماء ، يلزم الصمت مخافة أن يوقظ بحركته كل تلك الأفواه العطشى فتعبه حتى آخر قطراته . ولكنه فى أحيان أخرى جفاخ متعالى النبرة يجيش بأمواجه الثرية الصاخبة تتحدث عن خيرات الأرض التى تجودها الأمطار بتهطالها كأنها ليست الى نضوب . وتنحدر هذه المياه مبتعدة عن ينابيعها فتعكس المرة بعد الأخرى مناظر مختلفة بعضها

أكرم ضيافة من بعض ، فيتسع المسيل الصخرى القاسى ويطرد فاذا هو مجرى رملى عريض ، ويمحى منظر « السرتون » القاحل وما فيه من شجيرات الصبار الشائكة وأوراق « الماكامبيرا » الدقيقة ، فيتهلل الأفق بالخضرة الندية ثم بنباتات السباخ الكثيفة ، فاذا الأمواج وقد طامنت من صخبها وتجلت بالوقار ، حتى لتبدو وكأنها لا تبالى لقاءاتها مع الروافد الصغيرة ، برغم أن هذه الروافد تمدها بمزيد من القوة يجعلها أقدر على اجتياز الأراضى المستوية الثقيلة ، التى يبدو فيها الماء فى كل لحظة هيابا يقبل ويحجم ، يكاد أن يرتد على عقبيه . وأيا كان مبلغ هذه الروافد من التواضع فلكل منها قصة يسردها ، تحملها أسماؤها الكثيرة : نهر الأرز ، ونهر « الأوروبو » ، ونهر المغارة ، ونهر الشراب والعسل ، ونهر الغابة ، وأنهار أخرى لا حصر لها .. ولكن « الكابيباريبى » يتابع سيره ، أصم عن هذه القصص وأعمى ، تأخذ عليه كل حواسه اللهفة الوالهة الى لقاء «البيبيريبى» ، صنوه الآخر الكبير . هذا بينما «البيبيريبى» تراوده عن نفسها روافد أخرى ، تلقى بنفسها فى طريقه : «الكاماراجيبى» ، و«المونتيرو»، و «التيجيبيو» .. ويبلغ «الكابيباريبى» مدينة « ريسيف » فينفتح فى ذراعين قويين ، كأنما يمنع «البيبيريبى» أن يفلت منه . وأخيرا يلتقى النهران ، ويتعانقان ، يمتزج أحدهما بالآخر ويغرق أحدهما بالآخر ، وهما يتموجان هناء باللقاء بعد هذا الشوق الطويل ، ويروى كل منهما للآخر قصة مغامراته على الطريق . وفى عناقهما تتضخم مياههما ، نشوى مجنونة ، ثملة تجرى على غير هدى ، مترنحة بين كثبان الرمل ، متلثلثة فى مراغات الوحل ، متلبثة كأنما تغفو فى الشرم الصغيرة الهادئة . وفى وسط هذه الفوضى الضخمة من الأمواج ، وبين هذا العدد الضخم من الجزر الصغيرة والقنوات والأكثبة ، تخيرت «ريسيف» الحلوة موقعها ، كفصل ختامي في المغامرات الأسطورية التي رواها النهران العظيمان

والتي لن تلبث وشوشاتها الأخيرة أن تتبدد في المحيط الأطلسي .

... ويستيقظ «تشيكو» من أحلامه ، ويعاود بقاربه صعود «الكابيباريبي» ، وقد انتهى من صيده فهو الآن ، شأنه في كل ليلة ، على طريقه الى لقاء صديقه الحميم «كوسمه». ان«كوسمه» هو صديقه الأوحد ، لأن طيبه وصبره هما اللذان أنقذا «تشيكو» يوم كان في يأسه يفكر في ركوب قاربه الصغير الى عرض المحيط الهائج ، لكيلا يعود أبدا . وفي ظل هـذه الصداقة استطاعت عاصفة نفسه أن تهدأ ، اذ عرف «كوسمه» كيف يحيي في نفسه التعلق بالحياة وهو يقنعه بأن هناك آلاما أشد تبريحا من آلامه ، وحالات من الجذام أشد تنفيرا من حاله ، وأن العـزلة نصيب الـكثيرين ، بل قدر الجميع دون استثناء .

ويسمع «تشيكو» لأثقال الرصاص الصغيرة المربوطة بالشبكة وهي ترتطم بالمـاء صوتا يشـبه صوت المطر على السـطوح ، فيسحب شبكته ذات العقد الصغيرة ويجد فيها نصف دستة من أسماك السردين ، هي كل ما اعتاد أن يجده لأنه قلما اصطاد سمكة من نوع أكبر . فاذا أوشكت أشعة الشمس الأولى أن تظهر ربط قاربه الى الشاطيء وذهب يوقظ صديقه «كوسمه» ليأكلا معا . وكثيرا مايصل فاذا صديقه مستيقظ يرقب مجيئه ، لأن«كوسمه» ينام في ساعة مبكرة ، «ينام مع الدجاج» كما تقول عمته العجوز «توتونيا» ، ليستيقظ مع الفجر ويرصد في مرآته شروق النهار ، ويسلم «تشيكو» الأسماك الى «توتونيا» ، صغارها لتقليها على الفور ، وكبارها ـ اذا وجدت ـ لتبيعها في سوق « آفو غادوس » فتشتري له بثمنها الزهيد دخانا وكحولا و « مانيوكا » .

ثم يسمر الاثنان في مودة ، ورائحة السـمك المقلي تثـير شهيتهما . ويحدث «كوسمه» صديقـه بأسرار ماكان يمكن أن

يكشفها لأى آخر ، فيشرح له تفاقم شرور الوضع ، واستفحال المجاعة يوما بعد يوم ، وقصور الحكومة عن علاج ذلك بأية تدابير ، وانشغال السياسيين عن واجبهم هذا بملء بطونهم النهمة ، ثم يقول له ان ذلك كله لا يمكن أن يدوم ، وان العاصفة ترتسم بوادرها فى الأفق ، والاعصار يوشك أن ينفجر ، واذ ذاك سيكون الذنب ذنب الاقطاعيين الذين يمنعون أجراءهم أرضا يزرعونها بما يخفف من جوعهم ، وذنب أصحاب المصانع الذين يدفعون لعمالهم أجرا لايمسك الرمق بينما يرسلون أبناءهم للسياحة فى أوربا أو ينفقون هم أنفسهم المال جزافا على صويحباتهم ويفرشون لهن الشقق الرافهة فى المدينة ، وأخيرا ذنب الحكومة التى ترى كل شىء ثم تتظاهر بأنها لا ترى أى شىء .

ويبدو على «تشيكو» أنه لم يفهم هذا الحديث كل الفهم ، ولا يدرك كيف سيكون فى مقدور الشعب أن يكافح ضد السادة مالكى الأرض ، وهم شركاء فى الحكم ، وتحت تصرفهم الشرطة ، وبين يديهم القوة التى يمنحها المال . واذ ذاك يجيبه «كوسمه» بأن هذا آت عن قريب ، فالشعب لم يعد أبله غافلا كما كان من قبل ، ولم يعد وحيدا معزولا ، وهو بعد قد أخذ ينظم صفوفه ، ولشعب الشمال الشرقى حليف موثوق هو شعب الجنوب ، شعب عمال «سان باولو» وعمال المناجم فى «ميناس جيرايس» وفلاحى « ريو جراندى » . يقول «كوسمه» هذا وكثيرا غيره ، وهو يردد دون انقطاع حديثه عن ذلك اليوم العظيم الذى لن يلبث أن يشرق .

وبعد حين ، يبدأ القرويون بالمرور على الطريق ، يحملون سلال الفواكه والخضار ، ليذهبوا بها الى سوق «آفوغادوس» . واذ ذاك يودع «تشيكو» صديقه وينصرف مسرعا الى كوخه ، فهناك سيطمئن الى أنه فى حمى من الخطر الذى يمثله فى نظره كل هؤلاء الناس الذين يخرجون الى الحياة مع شروق الشمس .

١٠

كان « جوفانسيو » هو أول من حمل الى القرية النبأ المرعب ، اذ كان عائدا من عمله فى الأصيل فمر بالمشرب ليتناول فيه قدحا من الكحول ، وهناك بادر الى ابلاغ الآخرين الشائعة التى سمعها فى المصنع :

ـ الفيضان قادم الينا . لقد هطلت الأمطار فى «السرتون» بغزارة تحطمت معها السدود ، و«الكاربيباريبى» ينزل الآن نحونا كالمجنون ، مزبدا كالأفعى اذا ضربتها الشمس ، وقد وصلت نذر الفيضان حتى «توريتاما» .

ولكن الحاضرين لم يبد عليهم أنهم صدقوه • بل ان « مانويل باليتو » ، صاحب الحانوت ، ملأ بالكحول قدحين وضعهما على المنضدة أمام «سيباستيان» و «ماتيو» ، ثم قال بكثير من التمهل:

ـ هل أنت واثق أن هذا صحيح ، لا مجرد أكذوبة ؟ الناس لم يعودوا يعرفون ماذا عليهم أن يخترعوا ليثيروا اهتمام الآخرين !.. اذا كنا هنا لم نر المطر ، فكيف تريد أن تمطر السماء فى «السرتون» حتى يفيض النهر ؟..

واذ ذاك رد «جوفانسيو» بقوله :

ـ الأمر هناك مختلف . فى «السرتون» يبدو أن السماء تكاد

تطبق على الأرض · على أية حال ، هـــذا ما رووه لى ، أنقله كما سمعته .

ولــكن أحدا لم يبد عليه الفزع . فــرواد المقهى ، وهم من سكان المستنقعات ، قد اعتادوا الكوارث بأنواعها ، جفــافا أو فيضانا ، وسواء أجاءت من «السرتون» أم من الســباخ . انهم أناس اكتسبوا الصلابة بالعذاب ، فهم يشعرون أنهم أهل للكفاح ضد كل نزوات الطبيعة ، ولن يفزعوا دونما مبرر ، فهم اذا جاء الفيضان فسيعرفون كيف ينجون بأنفسهم منه ، كما نجوا منه فى مرات سابقة حين غطت المياه كل منطقة السباخ ، بمنازلهـا وأشجارها .

وقال «سيباستيان» فى سخرية :

ـ لقد كان الطوفان أسوأ ، ومع ذلك نجا منه نوح !..

فضحك رفاقه ، وعادوا يحتسون شرابهم ويصلون ما انقطع من حديثهم بمجىء «جوفانسيو» · وكان حديثهم عن قتال الديوك الذى يستثيرهم أكثر مما تفعل أبناء الفيضان، وصاح «سيباستيان» فى حماسة :

ـ أقول لــكم الحق ، وددت لو أرى ديكا يستطيع أن يرقع «المذهب» الذى يتباهى به صديقنا «آنا ستازيو» .

و «آنا ستازيو» ضابط شرطة متقاعد ، كان قد قضى سنوات من حياته فى الداخل مع الفصائل الجوالة التى تطارد عصابات الأشرار ، الى أن اقتنع أخـــيرا أن هؤلاء الأشرار المزعومين كانوا أفضل سلوكا من الجنود وأكثر منهم احتراما لحقوق النــاس

فاذا هو لم يلتحق بعد ذلك بهؤلاء الأشرار فلأنه كان قـــد جاوز الشباب منذ عهد بعيد . لذلك اكتفى بطلب احالته على التقاعد ، وأقام فى «سانتا آمارو» يعنى فيها بتربية ديوك القتال ، وهــو

منذ عامين يملك أفضل ديك فى كل المنطقة ، بل فى كل الولاية لأن «المذهب» استطاع التغلب على كل الأبطال الكبار من ديوك «كاروارو» و «تاكاراتنجا» . فاذا كانت مطاردة «آنا ستازيو» لعصابات الأشرار لم تعد عليه بالمجد (بل جعلته ـ على العكس ـ يخجل كلما ذكروه باشتراكه فى هذه الحملة السيئة السمعة) ، فان ديكه «المذهب» قد أحاطه بهالة من الصيت لم يعد الناس معها يسمونه «المقدم آنا ستازيو» بل «آنا ستازيو صاحب المذهب» يربطون بين اسمه واسم الديك الشهير ، فينعم «آنا ستازيو» بهذا المجد فى غبطة لايحاول اخفاءها .

وفى ذلك اليوم كان «آنا ستازيو» قد جاء الى المقهى ليبلغ الجميع أن ديكه سيتصارع بعد يومين مع ديك شهير آخر من مقاطعة «باراييبا» ، جاء به ابن أحد الأطباء خصيصا ليتبارز مع بطل «ريسيف» . وقال لهم «آنا ستازيو» فى تواضع مصطنع :

ـ ستكون مباراة شائقة . صحيح أن «المذهب» كان دائما مجليا فى معاركه ، ولكن يقال ان ديك «باراييبا» الذى يسمونه « الماسة » ، لم يخيب حتى الآن رجاء أحد . ثقوا أنكم لن تندموا على حضور هذه المباراة .

هكذا كان « آنا ستازيو » يتصل بكل مؤيديه ويحاول أن يكسب أنصارا آخرين يزيدون رأس ماله الضئيل ويسمحون له بأن يراهن ضد ابن طبيب « باراييبا » وضد كل الذين سيجيئون معه فى القطار وجيوبهم ملأى بالمال . ولكن أفضل مؤيدى « المذهب » كان « سيباستيان » نفسه ، الذى كان يحسن القيام بدوره كوكيل اعلانى ، فيزور كل مقاهى المنطقة ليجمع الرهون . وكان شديد الاقتناع بأهمية مهمته ، يقول للناس فى ثقة :

ـ ساعة حظنا جاءت ياشباب • ساعة استقلالنا دقت • سنصبح أغنياء بالملايين • يقال ان صاحبنا القادم من « باراييبا » ولد مدلل ، مولع بمبارزات الديكة • هذه فرصتنا اذن لنملأ جيوبنا بفلوسه• ويكفى لذلك أن نراهن بكل ما لدينا على بطلنا • فالمبـــارزة لن تكون لدى « المـذهب » أكثر من شربة ماء • أما بطلهم المزعـوم ، « ألماسة » فلن يكاد ينزل الى الميدان حتى يصبح كالضائع لا يدرى أين يختبىء ، ولا يستطاع اللحاق به حين يهرب •

واذ ذاك يقـول له « جوكا » ، وقد ملأه بالحماســة تصوره للمباراة الكبرى يوم الأحد التالى :

ـ ما هذا التشاؤم ، يا « سيباستيان » ؟ ان « ألماسة » هذا لن يتسع له الوقت كى يقول : « آه ! » ، اذ أنه سيقع لتوه على الأرض ، مشقوق العنق ، وقد فارق الحياة •

وكان « جوكا » أكثر سكان الحى اهتماما بمبارزات الديوك ، لا سيما منذ أصيب بداء الرثية فاضطر الى ترك عمله على رصيف « أبولو » ، حيث كان يقوم بحمل أكياس السكر • وكان «جوكا» شديد الحسرة على أيام شبابه ، يوم كان عاملا ممتازا ، يستطيع أن يحمل على رأسه كيسى سكر فى وقت واحد ، وان يأكل ثلاث دجاجات ويشرب ست زجاجات من الجعة دونما جهد • أيام بطولات لم تدم طويلا ، اذ لم يبلغ الخامســـة والثلاثين حتى أخـذت قواه تتلاشى ، وقد التهمتها الرثية التى نزلت بظهره ثم لم تفارقه • وها هو ذا الآن ، بعد خمس سنوات ، قد انقلب حطاما باليا لا يكاد يستطيع الحركة ، وقد تقوس عموده الفقرى وتصلب عنقه ، فأصبح عاجزا عن أى عمل جدى ، يحتال على العيش بالخدمات الطفيفـة يؤديها لهذا ولذاك ، وبالنصائح والمعلومات السرية المتصلة بمراهنات « البيشو » على خيول السباق ، وبملاحقة زملائه القدامى يهددهم

بسكينه ليبتز منهم الدريهمات • ولما كان كل يوم أكثر اغراقا فى الشراب وأقل طعاما فهو يقترب سريعا من نهايته ، ولم يعد له من هوى يكلف به سوى مبارزات الديوك ، فما تقام واحدة منها الا وهو حتما فى ميدانها ، وتحت ابطه زجاجة ماء ، وفى جيب سترته خرقة ، استعدادا لانعاش المتبارزين المنهكين • فاذا اشتدت المعركة ملأ فمه بالماء ، وقد انتفخت به وجنتاه الناحلتان كأنهما مثانتان ، وأخذ يرش به رأس الديك المحتقن بالدم ، فاذا نزف دم أحد الديكين مسحه بالخرقة حتى لا يغشى عينيه • والحق أن « جوكا » لم يكن مولعا بالمعركة ذاتها ولعه بنتيجتها • ففرحته الكبرى هى يوم يشهد نهاية مستوفاة ، وقد استطاع أحد الديكين أن يطرح الآخر على الأرض ، فاغر المنقار ، يلفظ نفسه الأخير • ذلك كان هواه ، وهو حين يرى هذا المشهد كان سرعان ما يعين الديك المحتضر على الموت فيلوى عنقه فى خفة ، ثم يعود الى منزله فيشويه على السفود ويقيم لنفسه منه مأدبة سخية •

وكان ذلك نوعا من الاتفاق الضمنى بين « جوكا » وبين كل مالكى الديوك : فما ينهزم ديك الا وتتلقفه يدا « جوكا » اللتان كانتا قد أحسنتا رعايته خلال المعركة ، وبللتا رأسه بالماء ، ومسحتا دمه النازف • ولم يخرق هذا الميثاق الا مرة واحدة ، يوم سقط « الأوحد » ، ديك « نيكو » الشهير ، صريعا بضربات منقار « المذهب » • فى ذلك اليوم رأى « نيكو » ، وهو بقار فى مزرعة « المادلين » ، أن من العدوان على المقدسات أن يفكر باعطاء «جوكا» جسد ديكه المسكين ليأكله • كان يعتقد أن هذا الجثمان الذى طالما تكلل بالأمجاد ينبغى أن يعاد الى الأرض ، تلك الأرض الطيبة التى منحته ما كان له من قوة وشجاعة • وكان قد سمع أن المقابر لم تكن وقفا على البشر فحسب ، بل ان منها ما هو مخصص للحيوانات• ولقد حدثوه أن اسطبلات آل « لندغرين » ، فى « باوليستا » ،

كانت تضم قبرا لحصان يدعى « موسورو » ، ربح الجائزة الوطنية الكبرى ، وفوق القبر نصب تذكارى رائع ، هو تمثال لحصان له جناحان فى ظهره ، كأنما هو ملاك لحصان . وكان « نيكو » يريد شيئا مثل ذلك لديكه « الأوحد » ، شيئا أقل فخامة بالطبع وأكثر تواضعا ، لأن الحصان شيء عظيم والديك لا يمكن أن يكون أكثر من ديك ، ولأن « نيكو » كان عاجزا حتى فى منامه عن أن يتصور مدى ثراء آل « لندغرين » ، هذا الثراء الذى يتيح لهم أن يشيدوا لخيولهم قبورا من المرمر والبرونز . أما هو فسيحقق مثل ذلك ولكن فى حدود طاقته ، فيقدم لديكه المسكين قبرا كريما ، فى سبع أقدام من الأرض كالقبور المسيحية ، فى صدر فناء المزرعة . وقد نفذ قراره هذا ، فانتزع الديك القتيل من أيدى « جوكا » ، الذى أذهله هذا الخروج على الأعراف ، وذهب فحفر وراء منزله قبرا دفن فيه جثمان البطل الشهيد ، ثم نصب فى الأرض الطرية صليبا من الخشب يزينه ريش ذيل الديك المرحوم .

أما اذا لم تنته المعركة الا بهرب أحد المتقاتلين كما يهرب الأنذال ، وبلحاق صاحبه به ليعيده الى خمه ، فان « جوكا » يظل بلا عشاء ويدفن حزنه فى المشرب ، فى كحول « مانويل » . على أنه اليوم يسكر لا لذلك ، بل احتفالا مسبقا بالوليمة الفخمة التى سيأدبها لنفسه يوم الأحد القادم ، والتى سيأكل فيها أحد البطلين الشهيرين مشويا شهيا . وهو واثق من ذلك ، لأن كلا من المتبارزين ديك ممتاز ، لا يعقل أن يهرب من المعركة كما تهرب الدجاجة المذعورة ، بل لا بد أنهما كليهما سيقاتلان حتى النهاية ، حفاظا على سمعتهما وأمجادهما ، فلا سبيل الى أن تنتهى المعركة الا باستشهاد أحدهما ، ليصبح طبقا سائغا على مائدة « جوكا » وان قسا لحمه .

... وا أسفاه على أحلامك يا « جوكا » ، فمعركتك الكبرى لن تقع ! الحلم للانسان ولكن الحكم لله ، والله قد فتح صنابير السماء

على « السرتون » وعلى الريف كله ، ومياه «الكابيباريبى» وروافده بدأت ترتفع بصـــورة مذهلة ، ترتفع منذ جبل « جاكارارا » فى أعالى البلاد ، منتفخة وثابة كأنها الأصلة الغاضبة ، تقتلع السدود وتلتهم قطعا كاملة من الأرض ، وتغطى كل التربة الخضراء بحمرتها الطينية ٠ ولقـــد ثارت أنهار « الفرتانتى » و « الكاماراجيبى » و « التيجيبيو » ، وجاءت مزمجرة تغزو « الكابيباريبى » ، ولـكن هذا النهر العظيم كان قد أصبح أعلى مستوى من روافده ، فـكانت جلبة كهزيم الرعد تلك التى التحمت فيها كل هذه الأنهار المجنونة٠

وفى هـذه الفوضى الجامحـة انتهى عهد التفـاهم الودى بين « الكابيباريبى » و « البيبيريبى » ، فهما الآن عدوان لدودان ، كل منهما يقتحم الأرض على الآخر كأنما أصابته نوبة غـيرة ، وكل منهما يزعم أن له الحق بمدى حيـــوى أوسع ، الحق باغراق الأرض كلها واحتضانها بأمواجه ٠ وحتى الروافد المتواضعة ـ حتى نهـر الأرز ، ونهر « الأوروبو » ، ونهر المغارة ، ونهر العسل ـ كلهـــا فار فائرها واستشاطت على الريف ، تهــدم الأكواخ وتغـــرق الأطفال ، وتقتل الماشية ، وتجرف فى طريقها السدود ٠

والأنباء ، لحظة بعد لحظة ، تغدو أشد انذارا بالمأساة ٠ حتى « سيباستيان » الساخر بدأ يوزع الأخبار المفزعة ، شارحا الحالة بالتشبيهات الدائمة السيطرة على نفسه ، تشبيهات العمل الجنسى بين الذكر والأنثى :

ـ يقولون ان الأنهـــار أخذت تطبق على أراضى الداخل بمثل جنون الفحول الشبقة ٠ « البتريبو » مثلا طرح محطة توليد الكهرباء على الأرض وألقاها فى سريره ، فاستسلمت له دون مقاومة ٠ وقد حاول « الموسوريبى » الأمر نفسه مع محطته ، ولكن هذه لم تنقد له وتأبت عليه ، فظل على صبوته وتوفزه طوال الليـــل ، يستعطفها ويلحس قدميها ، وظلت هى على صدودها لا تلين له ٠

أما « جوزيه باراونا » ، الفلاح القادم من الجبل المتهدم ، فلم يكن يفكر الا فى الأراضى التى ستصبح قابلة للزراعة :

– ان النهر ينزل وعلى ظهره حمولة من الجزر ، جزر ذات تربة سوداء وجزر ذات تربة حمراء انتزعها قطعا من الريف ومن السباخ ...

ويسيل لعابه وهو يتساءل فى أى مكان سينتهى النهر بأن يلقى كل هذه التربة ، كل هذه الجزر التى لو زرعت لردت غائلة الجوع عن كثيرين :

– يقولون ان الفيضان قد بلغ الآن مستنقع مريم العذراء ... ويقولون ان قرية « كابادو » أصبحت كلها تحت المياه ... لن تنقضى ساعات حتى يكون الفيضان هنا ، فى « ريسيف » .

على أن أهالى « القرية العنيدة » ظلوا يرفضون تصديق هذا الخطر المرعب ، يسلمون مصيرهم للعناية الالهية ويتعللون بقدرة أدعيتهم على تغيير الحال . « زيلويس » ، مثلا ، كان يقول وهو يقسر نفسه على التفاؤل :

– لعل كل هذه الجلبة ستضيع فى الطريق فلا يكون لنا هنا الا صدى الفيضان . فمياه النهر ، بين منبعها وبين الساحل ، ستكون مشغولة باغراق أراض كثيرة ...

ولكن « ماريا » ، التى لا يعرف طفلاها السباحة ، يساورها القلق :

– ان المياه تقترب من الساحل ، يا « زيلويس » . والفيضان غدار ، ليس من الحكمة الركون اليه .

ولكن الجميع ركنوا اليه • لم يفكر أحد أن يلجأ الى منطقة اكثر ارتفاعا وأبعد عن الخطر • تركوا كل شيء للمقادير ، بين يدى الله • هذا مع أن النهر كان منذ صباح السبت قد بدأ يكثر من الأدلة على تفاقم سورته ، بما تتقاذفه مياهه من نباتات خضراء اقتلعتها من المستنقعات • بل لقد حدث أن كانت هذه المياه ، بين الحين والحين ، تحمل شجرة كاملة ، وقد شعثت التيار أوراقها • وكان هذا كافيا للدلالة على أن الأمر جد ، وعلى أن ثورة الأنهار لم تكن دعابة • بل لقد انقضى الصباح كله والمطر يهطل ، والعالم يبدو كأنه غريق كله فى كتله واحدة من الماء تهوى بها الريح من الغيوم الى الأرض • وتساقطت على الأكواخ خيوط متصله من المطر ، تنفذ من خلال القش وتنتهى بثقب السقوف • ثم لم يلبث أن انضاف الى هذا صوت آخر ، معدنى ، هو صوت طبطبة الماء فى فقاعات ضخمة على علب المحفوظات الموزعة هنا وهناك ، داخل الأكواخ ، تفاديا لتحول أرضها الى برك مائية •

على أن العاصفة هدأت بعد الظهر ، وعادت الشمس منتصرة ، ومعها عاد الأمل • وأخذ الناس فى كل مكان يقولون بعضهم لبعض:

ـ لقد نجونا • ها هو ذا الطقس يتحسن •

ثم ذهبوا ليناموا ، وقد عاودتهم الطمأنينة •

استيقظت « ايدالينا » قبل الفجر ، وقدماها وظهرها كالجليد• وحاولت أن تتقلب فى سريرها فاذا هى تسمع صوت انبجاس الماء من غطائها المبلول • واذ ذاك انتصبت فى فزع ، وأضاءت مصباح الزيت المعلق على الجدار ، فاذا أشعته الصفراء تنعكس على بساط من الماء الوحلة ، وقد تحولت أرض الكوخ الى بحيرة ، وبدا السرير والموائد تعوم وكأنها حطام سفينة غارقة • واستحوذ على « ايدالينا » رعب مفاجىء وهى تذكر خنزيرها « باى » وتتساءل

ماذا جرى له ، فقفزت الى الماء وقد ضمت قدميها ، ورجلاها تنزلقان وتكادان تخونانها ، وهى باحدى يديها ترفع قميص نومها الى أعلى الفخذين ، وتسير فى الماء العكر نحو الباب الخلفى ، فتشده فى عنف ، جزعة تريد أن تعرف • ولكنها ، حيث كانت الزريبة ، لم تجد الا الماء • لا الحيوان يبدو له أثر ، ولا سياج الأغصان : لقد ذهب التيار بكل شيء • وبكت « ايدالينا » ، بكت خنزيرها الصغير المسكين وجهدها الضائع فى تسمينه وأحلامها التى انهارت بفقده ••• وسقطت دموعها الحارة فى ماء الفيضان المثلج ، بينما النهر يزداد هديرا وهو يحاصر العشة البائسة كما تغتصب امرأة، مقتلعا كتلا كبيرة من تراب الجدران التى يصفعها بأمواجه ، فيبدو العالم كله كأنما ينفرط • واتجه فكر « ايدالينا » فجأة الى حفيدها فتضاعف رعبها وعادت راكضة الى الغرفة ، توقظ « كارليندو » من نومه القرير فى سريره المرتفع المصنوع من أغصان الأشجار ؛ ثم عصرت سريعا ثيابه الصغيرة المبللة ، التى كانت على مائدة صغيرة تعوم وسط الكوخ • ثم ألبست الصغير وحملته على ظهرها وخرجت تبحث عن ملجأ • وفى العراء ازداد قلقها فقالت لحفيدها فى نبرة واجفة :

ـ كن حذرا يا « كارليندو » . تعلق بى جيدا حتى لا تقع .

ولكن الطفل لم يرد ، وهو يرتعد نعاسا وخوفا ، بل زفر وتنهد وازداد تشبثا بكتفى جدته •

وكانت قد أمحت الأزقة ، وقد غطى الماء كل شيء ، فلم تعد تظهر الا أعمدة الهاتف الثابتة وأشجار جوز الهند التى تترنح تحت هجمات السيل • وسارت « ايدالينا » فى غبش الفجر ، تهتدى بغريزتها وتتحسس طريقها فى اتجاه منزل « زيلويس » • وارتعشت بغتة حين صدمها شيء عائم كبير الحجم ، كان وسادة

ضخمة من « الدنتيلا » المغزولة ، يبدو أن العاملة لم تكن بعد قد انتهت من صنعها فما يزال مغزلا السدى واللحمة معلقين بها يصطدمان أحدهما بالآخر ، كأنما لا تزال تحركهما أنامل العاملة. أين هما الآن ، في هذه الساعات الحزينة ، تلكما اليدان اللتان كانتا تغزلان تلك الوسادة ؟ هل لا تزالان كيديها حيتين تتحركان ، أم طواهما الموت فهما باردتان متصلبتان تحت الماء ؟

وابتعدت الوسادة وانتهت بالاختفاء ، فهزت الزنجية رأسها كأنما تحاول أن تطرد عنه التصورات التى لا تجدى ، وأن تحصر فكرها فى ما ينبغي لها أن تفعله لانقاذ حفيدها المبلل ، المرتجف بردا ، والذى لا يألو يزداد ثقلا على كتفيها ، وهى لا تدرى كيف تنجو من الاختناق بالماء ، ولا أرض تلوح لها ولا سفينة • والماء ما ينفك فى صعود : كان لا يصل الا الى نصف فخذها ساعة خرجت من كوخها قبل قليل ، وها هو ذا الآن يغمرها حتى الخصر•

اذ ذاك قررت أن تعود على أعقابها ، الى الكوخ ، وفى نفسها رجاء غامض بأن معجزة ما ستحدث ، بأن كائنا ما سيظهر فى اللحظة الأخيرة فينقذها وحفيدها • وأخذت تتقدم فى حذر بالغ ، لا ترفع قدما الا بعد أن تكون أصابع القدم الأخرى قد تمكنت فى موضعها من الطين ، وهى فى خشية من أن تنزلق ، أو أن تزل فى خطوها فيسقط « كارليندو » من على ظهرها ويبتلعه التيار •

ثم تبدد أملها بالنجاة • أخذ يتلاشى رويدا رويدا حتى اختفى وغلبها اليأس •

واذ ذاك ، فجأة ، ظهرت لها الرؤيا . كانت أمامها منتصبة ، وجها لوجه ، وظهرها الى الأفق الذى كانت أشعة الصباح الأولى تشق طريقها اليه ، وهى على صورة كائن غريب ، عصاه فى يده ،

يتقدم فى جلاله ماشيا فوق الأمواج . وبذلك كانت تلك الرؤيا ، المرتسمة أمام عينى «ايدالينا» المحملقتين ، هى نفس صورة المسيح كما ظهرت للحواريين .

وشعرت «ايدالينا» بحلقها يضيق ، وبقبلها يتوقف عن النبض. وأرادت ان تركع أمام الرؤيا ، ولكنها لو فعلت لغطس رأسها فى الماء .. لذلك أفلتت لحظة ذراعى «اوسكار ليندو» الناحلين ، وأخذت ترسم اشارة الصليب ببطء بيدها المبتلة ، وعيناها يغشيهما الدمع ، بانتظار أن تكتمل المعجزة .

واذ ذاك تجسدت الرؤيا ، فاذا هى « تشيكو »المجذوم ، بثيابه الممزقة ، منتصبا على قاربه الصغير ، وفى يده عصا طويلة يجاهد بها التيار ويجتنب العواثير ، ولم تستطع «ايدالينا» أمام هذا المشهد أن تنبس بكلمة واحدة ، بل اكتفت بابتسامة ، ابتسامة غبطة سماوية ظلت مطبوعة على وجهها المبلل بالدموع .

ورفع « تشيكو » المرأة العجوز وحفيدها الى قاربه · ثم ذكر لها أنه انما جاء لانقاذهما ، وأن هذه كانت رحلته الثالثة منذ غادر كوخه فى منتصف الليل ، فأنقذ «كوسمه» وعمته ، ثم «زيلويس» وعائلته ، ثم ذهب الى منزل «ايدالينا» فلم يجد أحدا فيه · وأيقظ هذا الحديث انتباه « كارليندو » فعاودته الشجاعة وسأل أين عسى أن يكون «جوان باولو» ، فأجابه «تشيكو» انه فى مكان أمين ، هو حصن «بوراكو» الذى يتجهون اليه الآن . ولما استردت «ايدالينا» قدرتها على الكلام سألت «تشيكو» من أنذره بوصول مياه الفيضان ، فحامت ابتسامة على شفتيه الغليظتين المشوهتين وهو يجيب فى اقتضاب : « انه النهر » .

وكان هذا صحيحا ، فليس لدى النهر أسرار يكتمها عن المجذوم . ولقد مضت سنوات وسنوات وهما يتحادثان ، تعلم

خلالها لغة النهر في حواره مع الأشجار والقوارب والصيادين ، وهو حين وصل الى الشاطيء ، عشية الفيضان ، عرف من النهر أنه وشيك الوقوع ، لأن النهر كان يلعق بمياهه الأغصان كما تفعل البقرة بوليدها ، في حنان ، في خوار خفيض عطوف ، فأصاخ سمعه الى هذا الانذار ، وادرك أن النهر كان يحذر الأشجار من الخطر المقترب، وينصحها ان تتوسل بكل صلابة جذورها وجذوعها لتقاوم حدة السيل. وكان هذا نذيرا لا يمكن أن تخطئه أذن «تشيكو». فأرسى قاربه في مكان مرتفع ، وأحكم ربطه الى احدى أشجار جوز الهند ، وذهب من توه لينذر «كوسمه» ويتدارس واياه وسائل النجاة من الفيضان . وكانا كلاهما حريصين على أن لايجدا نفسهما في حشر من الناس ، ولذلك استبعدا فكرة اللجوء الى هضبة «أوليندا» أو هضبة القبعة او هضبة المسرات ، لأن هذه الهضاب بالذات كانت تلك التي لابد أن يقصدها كل الهاربين متى أخذت المياه تغطي كل شيء . وقر رأيهما على أن يذهبا الى حصن «بوراكو» القديم ، وهو حصن كان الهولنديون قد شادوه قبل ثلاثة قرون في طرف برزخ «أوليندا» ، على الحدود بين مياه النهر الحلوة وبين المحيط ، ثم هجر فيما بعد فليس فيه الآن الا السراطين وطيور الماء . ونفذا قرارهما في الوقت المناسب ، قبل أن يزداد ارتفاع المياه فتهدد كوخ «كوسمه» : جاء «تشيكو» بقاربه حتى باب منزل صديقه المشلول ، ثم تعاون مع عمته العجوز «آنا» على حمله الى هذا القارب . ولم يكن ذلك بالأمر العسير لأن «كوسمه» لم يكن أثقل وزنا من أي طفل . فلا كبير فيه الا رأسه ، أما باقي جسده فضامر ممصوص ، يشبه الهراوة ، ولو رآه الناس وهو ملفوف بغطائه لما فكروا أبدا أنهم أمام كائن بشري ، بل لخطر لهم انه حزمة من حطب .

ووصل «تشيكو» الى الحصن مع «ايدالينا» وحفيدها ، في ختام رحلته الثالثة ، فاذا هو يعج بأناس لم يكن يتوقع وجودهم فيه ، اذ أن كثيرين من أهل حي «سانتو آمارو» جاءوا على ما استطاعوا تدبره من وسائل نقل بدائية ، اصطنعوها من جذوع الأشجار والأعمدة والأخشاب ، حتى اذا بلغت بهم برزخ «أوليندا» انتقلوا الى الحصن على أقدامهم . وبين هؤلاء القادمين كان «جوفانسيو» و «مانيكو» ، اللذان ساعدا «ايدالينا» على تسلق المرقى الوعر الى داخل الحصن . ثم قضى «جوفانسيو» وقته يندب حظه ، ويتحدث عن منزله الذى لابد أن يكون الفيضان قد اقتلع كل بلاطات الخزف التى بذل الجهد الطويل لجمعها ورصفها على أرضه الطرية ، وقد أتى بها واحدة بعد واحدة ، يخفيها تحت قميصه فتأخذه الرعشة اذ تلامس جلده برودة الحجر ، فاذا كل هذه الشهور الطويلة من العناء الضائع تغرق الآن تحت أوحال النهر الفائض ! وتجيبه «ايدالينا» على هذه الشكوى المتكررة بأخرى مماثلة ، تبكى فيها خنزيرها الذى فقدته .

وارتفعت الشمس ، تنتزع بعض الشرارات من بحر الطين . وغادر «تشيكو» الحصن مرة أخرى على قاربه ليحاول انقاذ المزيد من البشر ، ولكن ناقلات أخرى أفضل تجهيزا كانت قد خرجت للقيام بهذه المهمة ، هى مراكب الشرطة البحرية ذات المحركات ، التى أخذت تلتقط الناس من هنا وهناك ، وقد وقفوا على سطوح المنازل أو تعلقوا بأغصان الأشجار أو جلسوا فوق أكوام من الحجارة كانت معدة لرصف الطريق وكانت تنهار تدريجيا تحت أقدامهم . وفى الوقت نفسه أخذت تجتاز النهر قوارب أخرى تغص بالناس والبهائم ، فيها الأغنام والكلاب والدجاج ، والببغاوات ، والأقفاص الملأى بالطيور : أسطول صغير من سفن نوح .

وتزايدت حدة الفيضان ، فرأى « تشيكو » أن الحكمة تقتضيه العودة الى الحصن والبحث عن ركن معتم يستريح فيه . أما « جوان باولو » و « أوسكار ليندو » فقد استندا الى افريز السور يطلان على مشهد المياه الغضبى كما لو كانا فى شرفة مسرح ، ويتابعان بعينيهما نزول الأشجار المقتلعة المتناثرة بقعا خضراء فى حمرة الفيضان الداكنة . وتمر أمامهما اعداد كبيرة من الحيوانات النافقة ، خرفانا وكلابا ، وحتى أبقارا ، انتفخت بطونها الضخمة بالغازات واختفت رؤوسها الثقيلة فبدت كأنها قطعان من صغار الحوت . كذلك تمر فى اتجاه التيار عقبان « الأوروبو » وقد جثمت فوق الجيف وأنشبت مخالبها فيها . وبين الحين والحين تمر دجاجة ميتة فيحاول ركاب القوارب أن يلتقطوها ليضمنوا لأنفسهم بعض ما يقتاتون به فى الأيام القادمة التى ينتظر أن تكون عسيرة . هذا بينما هزيم المياه ما يألو فى تصاعد ، والناقلات يتقاذفها السيل فاذا جاوزت حمولتها الاعتدال انقلبت بها وقذفت بركابها الى الماء فاذاهم كالمجانين يحاولون التعلق بمراكب أخرى ، أو بجذوع الأشجار ، أو بكل ما يعوم من حولهم .

وحين اقترب المساء لم يعد يستطاع التفريق بين البحر وبين الأنهار ووديانها ، اذ تحولت كلها الى بحيرة واحدة حمراء تمتد منذ الأفق حتى منارة المرفأ . واختفت تحت المياه كل المزروعات وأشجار « المانجريف » والحدائق والأكواخ . حتى معامل « فارسيا » اختفت فلا تبدو منها الا مداخنها ، كأنما هى منارات مطفأة فى هذا المحيط من الخراب .

ولم يعد لشىء حرمة لدى النهر ، فها هو ذا يستعد لغزو الأحياء الراقية ، ومنازل الآجر والقرميد . بل لقد شمل الفيضان القصور الصغيرة المبنية فى حى « المادلين » ، عند منعرجات

الأنهار ، مرتفعة فوق الأسوار العالية ، فتراكض الخدم لاهثين يحملون الى الأدوار العليا ثمين الأثاث والسجاد ، وأوانى الخزف و « الكريستال » ، بينما ربات القصور يركعن مع بناتهن ويرددن الأدعية على أعتاب الهياكل ، وقد اختلطت رائحة الشموع برائحة الحمأ الذى يأتى به المد .

أما كنيسة « آفوغادوس » ، المرتفعة فوق الرابية ، فكانت تغص بزوارها ، يفدون اليها من كل صوب طلبا لركن جاف من الأرض أو طلبا لبعض العزاء ، فيرتمون على أقدام هذا أو ذاك من القديسين ، ويستردون بعض شجاعتهم بالاستماع الى مواعظ الأب « أريستيد » ، الذى كان قد فتح أبواب الكنيسة وأضاء فيها الشموع وأمر « فيريموندو » أن يقدم لأشدهم عوزا قليلا من القهوة ومن خبز الذرة ، بينما هو يكرر للمؤمنين أن عليهم أن يثقوا بالله .

واستمرت المياه ترتفع طوال الليل حتى بلغت أبواب الكنيسة، التى غصت بمن أصبحوا لاجئين اليها يسندون الى الجدران ظهورهم المتعب ، وقد أصيب أكثرهم بالبرد فتعالى سعالهم المتصل يمنع الجميع من النوم : ليلة لا نهاية لها تزمجر فيها المياه فى الخارج ، وتزقزق فيها البطون الخاوية ، وتتجاوب فيها أصداء نوبات السعال ودندنات البعوض .

واخيرا أصبح النهار ، فأخذ الأولاد يصطادون السراطين المتعلقة بأبواب الكنيسة . وكان بعضها من فصيلة صغيرة جدا ولكن لها أطرافا بالغة الطول لا تتناسب مع ضمور جسمها ، تتسلق الجدران كأنها الحراذين .

ثم جاءت مراكب الحكومة تحمل الماء والغذاء ، وأخذ رجال الاغاثة يوزعون القهوة والسكر وخبز الذرة ، وخليطا من

«الفيجون»(١) و « المانيوكا » يحملونه فى سطول خشبية كبيرة ويصبونه مباشرة فى أيدى المنكوبين . فاذا وقف أحد هذه الزوارق رأيت أذرعة معروقة تمتد نحوه ، متشنجة الراحات جازعة ، فلقد كان الطعام قاصرا عن اشباع كل هذه الأفواه التى تستجدى بصراخها الصدقة الرسمية .

وفى الأصيل وقف عند باب كنيسة «آفوغادوس» قارب قذف منه رجال الانقاذ بثلاثة وجوه «هوميرية» ، ألحقوها بطائفة من الشتائم المقذعة . كان هؤلاء الثلاثة «مانويل باليتو» و «جوكا» ، و « سيباستيان » ، وكانوا سكارى يحاول كل منهم أن يسند الآخر؛ اذ كان بدا لهم أن يصمدوا للفيضان فى داخل المقهى نفسه : كان «مانويل باليتو» قد رفض الابتعاد عن زجاجاته الملأى بالكحول ، ففضل أن يجازف بحياته الى جانبها مادام لايستطيع انقاذها ، وجلس على المنضدة ينتظر تطور الأحداث . واذ ذاك تضامن «سيباستيان» و «جوكا» مع صاحب المقهى ، وظل ثلاثتهم يشربون طوال النهار ويقضمون بين الحين والحين قطعة من خبز الذرة ، الى أن عثرت عليهم هناك احدى دوريات الحرس .

وحين دخل هؤلاء الثلاثة فناء الكنيسة كان الجرس قد قرع للصلاة وكان الأب «أريستيد» قد استهل موعظة يعزى بها رعيته المنكوبة ، قائلا ان الصبر أم الفضائل ، مذكرا بحكاية أيوب الذى صبر على مايوازى الموت كل يوم وتقبل باواه راضيا بتدبير الله . ثم تحدث عن الحكمة الربانية والعدالة الأبدية : فاذا نزلت بهم اليوم هذه المصائب ، فمن المؤكد أنهم استحقوها . فليرجع كل منهم الى ضميره ، وليستغفر ربه على كل ما ارتكب من معصية .

---

(١) «الفيجون» Feijão هو فى البرازيل صنو الفول المصرى عندنا ، بشكله وخصائصه وكونه الغذاء الشعبى . **(المترجم)**

فان قليلا منهم يفكرون بالصلاة يوم الأحد ، واكثرهم يذهب الى المقاهى أو يشهد مبارزات الديوك ..

وحين بلغت الموعظة هذا المدى لم يعد «جوكا» يطيق السكوت، فانطلق يهمهم ويجدف ، اذ كان فى اضطراب فكره يرى أن تلك العدالة التى تحابى فى توزيع المصائب هى أبعد ماتكون عن الكاثوليكية :

ـ اذا انقطع المطر وكان محل ، فالفقراء هم الذين يموتون جوعا . واذا كثر المطر وارتفع الماء ، فالفقراء أيضا هم الذين تغرق منازلهم . فلم لايأتى الطوفان مرة واحدة فيغرق الأغنياء الذين ينعمون بحياة الترف والدعة ، ويأكلون على ظهور المساكين؟ وما هى هذه العدالة الالهية التى تغمض عينهما عن تعاستنا ؟ أنظروا مثلا الى ما حل بى ، أنا « جوكا » : كددت ليل نهار ، ولم أؤذ ذبابة ، فاذا ثوابى مع ذلك هذه الرثية المشوهة . وفضلا عن ذلك ، كنت هذا الأسبوع أعد مباراة الديوك الكبرى للأحد القادم ، وهى عزائى الأوحد ، وفرصتى الوحيدة لآكل بعض اللحم، فاذا هذا الفيضان الملعون يلغى المباراة ويختطف اللقمة من فمى ! أية عدالة هى هذه ؟..

وعبثا حاول جيران « جوكا » وقفه ، فقد كان يزداد احتجاجا على قدره ، وهو يلوح بزجاجة الكحول التى أنقذها من الفيضان والتى يشد على عنقها بقبضته .

فى اليوم التالى بدأت المياه بالانخفاض . ولئن ظل التيار على شدته ، فقد أصبح فى المستطاع تنظيم موكب للتطواف على صفحة «البيبيريبى» الذى كان أسرع الى الهدوء من «الكابيباريبى» . وهكذا خرج مركب كبير ينزل مع مجرى النهر منذ « فيتوسا » ، ممتلئا بالمرتلات ، واحداهن تحمل بين ذراعيها تمثالا للقديس

« سان أنطونيو » . كان المركب يدعى « نجمة الفجر » ، وقد زين مقدمه بكثير من الزهور ، وبالشموع المضاءة يطفىء بعضها الريح ، وكانت التراتيم المرتلة تنطلق من المركب ثم تحوم وتتناثر فوق المياه • وعلى طول الشاطىء أخذت شموع أخرى تضييء ، يغرسونها فى الطين • ومن هنا وهناك ، تجاوبا مع الترتيل الكنسى ، ترتفع أصوات متفرقة تبتهل الى الاله « شانفو » فتخلط بين « سان أنطونيو » وبين آلهة السحر الافريقى .

وفعلت الصلاة فعلها فغيض الماء • وظهر على واجهات المنازل العالية وجدرانها شريط أسود ، واضح كأنه حاشية ثوب ، يزداد عرضا بقدر ما تنحسر المياه .

وظهر الجوع على الناس ، واختفى كثيرون ، وأخذت الأمهات القلقات يبحثن عن بناتهن هلعا من أن يكون أغراهن الشيطان : « ماروكا ! جوليا ! سيفيرينا ! » ، فيجتاز نداؤهن الباكى أو الحانق النهر من ضفة الى أخرى دونما جواب :

ـ أيتها السافلة ، تستفيدين من الفيضان لتذهبى الى ارتكاب الحماقات ..

ويتجدد الأمل ، يولد مرة أخرى ، فاذا الناس على عجل من أمرهم يريدون استئناف الحياة من حيث تركوها ، واعادة تعمير المنازل ، واعادة بناء الأسر ، وصيد السراطين والتناسل والتكاثر .

١١

الماء حين فاض أطبق على الأرض واحتواها ، بمثل سورة الامتلاك الجنسى ، ولكنه ، حين هدأت سورته هذه ، انسحب مخلفا وراءه ، على أديم الأرض وأديم البشر ، تركة من الخراب والدمار . فما انقضى اسبوع بعد الفيضان حتى عاد الطين الى عريه مرة أخرى ، تتصاعد منه رائحة العفن على أشد ما تكون ، ممتزجة بتعطن جيف البهائم المتخلفة عن الجزر ، لا تكاد تحجبها قشرة مائلة الى السواد تطفو على وجه الماء . وفى وسط هذا الخراب الشامل لا تتجدد الحياة منتصرة الا فى أشجار « المانجريف » الكثيفة ، بأوراقها ذات الخضرة المغسولة ، اللامعة المصقولة كأنها شفرات النصال ، المزهوة المهندمة كأنها خرجت لتوها من موعد غرام .

وليست هذه مجرد صورة مجازية : فان « تشيكو » يروى ـ بلهجة الواثق مما يقول ـ أن أشجار « المانجريف » اذا غطاها الفيضان قضت وقتها فى المضاجعة ، فأسلمت أوراقها لصولة قبلات التيار ، وحكت أغصانها بعضها ببعض فى لذة ، ثم انتشت وهى تغرس جذورها الغليظة فى الحمأ الغض الى يغطى أرض النهر . وهو أيضا يزعم أنه فى الليل كثيرا ما سمع أشجار « المانجريف » ترقص رقصة الزفاف فى قعر الماء ، وتتفجر سوقها

المكتنزة وهى تريق نسغها فى مودق السبخة الطرى ، فى جوى راعش لا يتطامن حتى يبلغ نهزة النشوة الحادة ، لحظة يخصب أحشاء النهر المضبعة بنطفة « المانجريف » ، فاذا هى أراض جديدة تخرج من قلب الماء .

وربما كانت رقصة الزفاف التى تقوم بها ذكور « المانجريف » ونزوتها الجاوية فى موسم الفيضان ، من صنع خيال « تشيكو » وحده ، ولكن ولادة الأراضى الجديدة ليست من نتاج أى خيال . فكل فيضان جديد يرتجل جغرافية جديدة ، ويمحو بعض الأراضى ليظهر غيرها فى أماكن أخرى . وهذه الأراضى الجديدة ، المولودة من أحشاء النهر ، ترى النور على شكل حدبات صغيرة من الحمأة لا يلبث نبت السباخ أن يغطيها فى حنان كأنما ليرعى نموها بحمايته. وفى نفس الوقت الذى تظهر فيه نبتات الخضرة الأولى يظهر المحتكرون ، الخبراء باستملاك هذه الأراضى الجديدة ، ويطلقون عليها الأسماء ويبادرون الى طلب تسجيلها ملكا لهم لدى الدوائر الحكومية المختصة . وبذلك يعدون أنفسهم لاستغلالها بعد حين طويل ، يوم تنمو وتكبر فيجعلون منها اخاذات للأكواخ ضخمة الريع .

على أن الأرض ليست وحدها التى تنتفخ بعد انحسار الماء ، فبعض البطون تنتفخ أيضا ، ولا سيما بطون أولئك الفتيات الرعناوات اللواتى لم يأخذن بنصائح أمهاتهن ، بل انتهزن ما أتاحته لهن المأساة من حرية ليلحقن ، بين جذوع « المانجريف » أو فى ظلال أشجار جوز الهند ، بالفتيان الخلاسيين الذين أثار نزوتهم جنون الأنهار . وقد كان هذا شأن « زيتا » و « كلوتيلدا » ، برغم مقاومتهما الطويلة فى الماضى لاغراءات فتيان المدينة ، اذ أطاشت صوابهما سورة المياه .

فاذا انقضت تسعة أشهر ، استقبلت الأرض حصاد الفيضان من أبناء المستنقع . أبناء بلا آباء ، وبلا مستقبل ، حكم عليهم أن ينبشوا السباخ بحثا عن الغذاء ، وأن يستخرجوا من الطين الخبز واللبن : لحم السراطين وحساءها المغلى ، وأن يشبوا مع السراطين وفقا لحركة المد والجزر .

وتحبل الأرض بالجزر ، وتحبل الفتيات بأطفال لا أب لهم ، ولكن أحدا لا يسعده هذا المزيد من الأراضي ومن المواليد . فالناس كلهم فى حزن عميق ، وقد ذهب الفيضان بشجاعتهم ، وحملت المياه معها وهى تنحسر ما كان يشد أزرهم من ارادة الحياة ، وتلاشت مع الجزر كل العزيمة التى أظهروها طوال أيام الفيضان والتى كانت تبدو وكأنها غير قابلة للنضوب . ذلك لأن أهل المستنقعات ـ كما يحدث دائما ـ لم تصبح حياتهم أفضل بانحسار المياه ، بل ازدادت سوءا ، اذ تضاعفت مجاعة المنكوبين وفى الوقت نفسه أوقفت السلطات العامة ما كانت تمنحهم اياه من عون بمجرد ابتعاد الخطر . صحيح أن الحكومة الاتحادية قد رصدت اعتمادات ضخمة لمساعدة ضحايا الفيضان ، ولكن السياسيين المحليين يشعرون بأنهم قاموا بما كان عليهم من واجب وأن مهمتهم الآن أن يثيبوا أنفسهم على كل ما بذلوه من تضحية . وهكذا تجرى المياه هادئة منقادة نحو البحر ، وتجرى أموال الاعتمادات الاتحادية هادئة مكتومة نحو جيوب السادة الأغنياء لايراها المنكوبون حتى من بعيد .

وتزداد الحال سوءا وقتاما يوما بعد يوم . فلقد أصاب الفيضان ببالغ الأذى كل مزروعات المنطقة ، وارتفعت أسعار السلع الغذائية بصورة مجنونة . حتى صيد السراطين أصبح أكثر مشقة ، بسبب طبقة الحمأ السميكة التى تبدو وكأنها تغطى العالم كله . وصحيح أن صيد السراطين كان غير مستطاع أيضا خلال

أيام الفيضان ، ولكن الجائعين كانوا تعويضا لذلك يحصلون على أشياء أخرى ، ولاسيما على البهائم الميتة التى يحملها التيار ، فكانت أسر كثيرة تنعم بأطباق لذيذة طبخت بلحم ما اصطادوه من خراف . أما الآن فلم يبق هناك بهائم ، لا ميتة ولا حية . لم يبق هناك الا أناس أفرغ الجوع رؤوسهم ، وأوهن أذرعتهم ، وجعلهم نصف أموات .

والفيضان ينشر بعض الأمراض بصورة مرعبة ، فالملاريا صرعت نصف السكان ، تصطك أسنانهم تحت تأثير البرداء المثلثة الخبيثة ، والنزلات الوافدة وذات الجنب وذات الرئة لم تعف أحدا ، والسل عاود من كانوا برؤوا منه ، بحيث لا تجد أسرة ليس فيها مريض يحتضر على فراشه الحقير .

وقد أثار سوء حال أهل المستنقعات مشاعر أهل الأحياء الثرية ، فقرروا أن يقوموا بمساعدتهم : اجتمعت سيدات المجتمع الراقى ونظمن حفلة خيرية للتخفيف عن هؤلاء المساكين ، كانت سهرة راقصة فى«الجوكى كاوب» ، فى شارع«الكونت دو بوافيستا» افتتاحا لموسم « الكرنفال » ، حفلة لا تنسى ، كشف حساباتها عن استهلاك يفوق المعتاد لزجاجات «الشمبانيا» وصناديق«الويسكى» كما تبرعت لها المؤسسات المحلية الكبرى بهدايا بيعت فى المزاد العلنى فكانت هذه البادرة شهادة على صدق اهتمام المنتجين بأحوال الفقراء ، ولا ننس أن نذكر أن ربح الحفلة الصافى ، بعد تسوية نفقات الزينة والانارة والخدمة ، قد استخدم كله فى شراء الأدوية والملابس والطعام لضحايا الفيضان ، أو على الأصح — لنقل هذا ابتغاء للدقة — لأطفال منكوبى الفيضان الذين ظلوا على ولائهم لكل تلك الأسر الكريمة فى المدينة .

على أن من المؤسف أن مثل هذه الحفلة لا تتكرر كل يوم . وفى اليوم التالى تبدو المعونة التى أثمرتها نقطة من الماء فى محيط

البؤس ، وكل هؤلاء الجاحـــدين لايلبثون حتى ينسوا ما أفيىء عليهم من نعماء ، وعلى قدر هبوط مستوى المياه يتصاعد حقدهم على الأغنياء مع أن هؤلاء أسدوا اليهم ما استطاعوا من عون فى أيام المحنة . تلك هى طبيعة البشر ..!

ولقد عاد أهل السباخ ، على رغم سغبهم وهـزالهم ووهن قواهم ، الى بناء أكواخهم الحقيرة التى هدمها الفيضـــان ، فلم تعارضهم الشرطة هذه المرة ، كأن المحنة جعلت للسلطات العامة قلبا أكثر رقة ، فلطفت من اجراءاتها التعسفية فى هذه الأيام التى كفتها فيها الطبيعة مؤنة ملء قلوب البؤساء أسى وضغينة ، بل لقد وجد بين رجال السلطة من حاولوا أن يكونوا أهل خير : «جانواريو» مثلا ــ الذى سمى مؤخرا مساعدا لرئيس قوى الأمن فى المنطقة ــ كان يجول فى الحى فيعرض المساعدة ومواد البناء على كل من يعرف القراءة والـكتابة ، شريطة أن يذهب هذا الى مقر الحزب الحاكم لاستلام بطاقته الانتخابية أو تجديدها توقعا للانتخابات القادمة . وكان «زياويس» يعرف القراءة والـكتابة ولـكنه رفض عرض « جانواريو » ، فبدا الاستياء على مســـاعد رئيس قوى الأمن وسأله عن أسباب رفضه ، واذ ذاك سمع هذا الجواب الذى تركه مشدوها :

ــ أنا جائع ، ولـكن أمرى فى يدى .

حقا انهم بلهاء ، هؤلاء الناس ! يغرقون فى الطين حتى العنق ويعانون البلايا بأنواعها ، ومع ذلك يتعـــالون ويرفضون عون الحكومة ...

والواقع أن ساكن السباخ ، ولا ســـيما ذاك القـــادم من «السرتون» فى موسم المحل ، يطارده الجوع والعطش ، هو على وجه العموم انسان عسير القياد ، لايحسن الخضوع لقواعـــد

الحياة فى المدينة ، ولئن كان الخيزران ، هذا الساكن الآخر من سكان السباخ ، يعرف كيف ينحنى أمام الرياح العاتية لينتصب بعدها وهو أكثر مقاومة ومتانة ، فالقادم من«السرتون» جموح يرفض أن يحنى هامته ، وقد ظل كذلك وان جاء ليعيش فى المستنقع ، لا عن صلف وتجبر ، فهو متواضع يواجه المتاعب دون شكاة ، ويغض بصره احتراما لذوى السلطة ، ولكن احذروا أن تجبروه على أن يطأطىء رأسه أكثر مما ينبغى ، فاو فعلتم لرفع بصره فى وجهكم تحديا ، ولأدركتم أنه ليس من طبعه أن يلعق حذاء أحد .

لن يذهب أهالى المستنقع لتسجيل أنفسهم ، اذن ، ولن يقترعوا لصالح حكومة تفرض عليهم الجوع حتى الموت ، لن يؤيدوا حليف المالكين الكبار الذين لم يرأفوا بهم حين طردوهم من أراضيهم ، وحين انتزعوا ما كانوا يزرعونه من « المانيوكا » و «الفيجون» أيام الأجازات لأن بساتين الفقراء الصغيرة هذه كانت تشوه جمال الخضرة المتصلة فى حقول قصب السكر . انهم يفضلون أن يظلوا على جوعهم بدلا من أن يبيعوا كرامتهم بصدقة تتفضل بها عليهم الحكومة ، فلتتصدق الحكومة على العاجزين ذوى العاهات ، لا عليهم ، فهم يستطيعون العمل ويريدون العمل . فلا شيء يحنق البؤساء أكثر مما تحنقهم تلك الحبوب والجرعات المقوية توزع على أولئك الذين هم بحاجة الى البقول والدقيق ، أولئك الجياع بالولادة ، وخير أن تريح الحكومة نفسها من العناء ، أن تظل مغمضة العينين على البؤس ، من أن تتظاهر رياء بمكافحته بتلك القبضة من حبوب «الفيتامينات» ، أو بتلك الحفلات الراقصة المقنعة التى يريح الأغنياء ضمائرهم فيها بين قدحين من الشراب .

ومع انخفاض المياه أصبحت مرارة الحياة تشمل كل شيء

وتمد عدواها الى كل شىء . لم تعد الأغانى والموسيقى ترافق بناء المنازل التى يصلحونها دون عناية ، وفى مثـــل صمت الموتى . ولم تعد تسمع أهازيج «الماراكاتو» ولا دبكات «رقصة الثور» ، ولم يحتفظ الا «جوكا» وحده بمرحـــه وهذره ، «جوكا» الذى يلتهب ذهنه حين يلمس الـكحول ، وقد كان مؤخرا يدخل مقهى «مانويل باليتو» ليتناول بعض الشراب حين سأله هذا على عادته تزجيـــة للوقت :

ـ كيف حال الدنيا معك ، ياعزيزى «جوكا» ؟

فأجابه :

ـ عال ياصديقى عال . اننى أعزف على القيثار .

ودهش الجميع للجواب ، أى قيثار وأى عزف على القيثار وكلهم يعرف أن حياة « جوكا » أكثر من تعيسة ، وأنه لا يملك شيئا ولا يعرف خـــلاصا من ديونه ؟ ولـكن «جوكا» تركهم يجترون دهشتهم بعض الوقت ، ثم شرح لهم الأمر بلهجته الساخرة :

ـ ألا تصدقون ؟ ان الأمر جد بسيط ، اذا أنا قضيت عمرى أعقد قرضا جديدا لأستطيع وفاء قرض قديم ، ألا أكون كالذى يعزف على القيثار ، يفتح ثقبا ليسد ثقبا آخر ؟..

وفى هذه المرة فهموا ، فهموا وضحكوا لنكتة «جوكا» ضحكة صفراء باهتة ، ذلك لأن المستنقع لم يعد يعرف الضحكات المرحة حقا ، ولا الحفلات الصاخبة . لم يعد الناس يجتمعون الا فى السر والا استعدادا للثورة التى ينتظر منها أن تعطى الخبز للجميع وأن تطرد من أرضهم حكومة اللصوص .

هذه الاجتماعات كانت تنعقد كلها تقريبا فى منزل «كوسمه» الذى ظل الزعيم الحقيقى برغم كل مايبدو أن الفيضان قد أحدثه

من أذى حتى فى كيانه ذاته ، فلقد تغير «كوسمه» كثيرا منذ المحنة ، حتى لكأن الشلل أخذ ينتقل من جسمه الى ذهنه ، فلم يعد ذلك البركان الانسانى الذى كانه ، يقذف من فمه وعينيه اللهب الذى يحترق به . بل لقد بدأ هذا البركان بالانطفاء ، فأخذ «كوسمه» يقضى الساعات الطويلة فى شبه غيبوبة ، وقد أهمل مرآته الى جانب فراشه ، وقطع كل صلاته بالعالم الخارجى مستغرقا فى الظلمات . ولم يكن أحد يدرى علة ذلك ، أهى البرد أم هى الرحلتان الشاقتان اللتان قام بهما خلال الفيضان ممددا على خشب القارب الرطب ، أم هى مشهد كل الآلام التى خلفتها هذه المحنة فذهبت بما كان تبقى له من شجاعة وقوة ، فهو الآن يقترب من نهايته ، وان كان يكافح البقاء ، لتأجيل موعد هذه النهاية فسحة من الزمن تتيح له مرة أخيرة أن يساعد اخوانه على الخروج من تعاستهم .

وكان الناس يأتون من كل صوب ليتبادلوا الرأى مع زعيم القرية العنيدة ، بينهم زعماء عمال المرفأ والمصالح العامة وشركة النقل ، وبينهم آخرون أتوا من بعيد ، هم قادة الفلاحين الذين جاءوا يشكون الحياة فى مطاحن السكر ، والعسف الذى ينالونه من كبار المالكين ، ويروون كيف أصبح سادة الأرض هؤلاء أقسى قلبا بعد أن ذهب الفيضان بكثير من حقولهم ، فأصبحوا أعتى فى اضطهاد أجرائهم ، يهددون بطردهم لأتفه الأسباب ، ويجبرونهم على العمل بلا أجر ، وعلى اعادة غرس القصب الذى خربه الفيضان لقاء حفنة من الطعام فحسب : قليل من «الفيجون» والدقيق وقطرة من الكحول أو العسل الأسود ، بذريعة أنهم أصبحوا بلا مال ، ويضيفون أن الأجراء الذين يرفضون العمل بهذا البدل البخس يستطيعون الذهاب الى جهنم ، أما اذا اعترضوا واحتجوا بما أدخلوه من تحسينات على أرض المالك ـ ككوخ القصب ، أو المبقلة المزروعة ملفوفا ، أو زريبة الخنازير ـ

فان الأشقياء العاملين فى خدمته يهوون عليهم بالهراوات ليكون ذلك عبرة للآخرين .

وكان «كوسمه» يدعو الى هذه الاجتماعات السياسية بعض رجال القرية العنيدة . يدعوهم بمرآته ، باشارات سرية يوجهها اليهم وهم فى طريقهم الى عملهم ، يحدد لهم فيها موعد الاجتماع . فاذا جاء المساء برهنوا كلهم على طاعتهم لأوامر الزعيم فلم يتخلف عن الموعد أحد .

وكان «جوان باولو» دائم المواظبة على هذه المؤتمرات الصغيرة يأتى اليها مع أبيه فيجلس فى ركن يستطيع منه أن يراقب كل شيء . وقد تأثر «جوان باولو» كثيرا حين تعرف الى قادم جديد هو «ناسيميانتو» الكبير ، بطل الشجار الذى سبق له أن سمع الكثير عنه . وكان «ناسيميانتو» الكبير مقاتلا فظا لايرحم ، يقولون أن فى ذمته حتى الآن عددا كبيرا من القتلى ، ولكنه كان شريفا لا يغدر ، ولا يطعن الناس فى ظهورهم . وكانت أكثر جرائمه بسبب النساء ، اذ كان يعاشر بضع فتيات فى مختلف أحياء مستنقعات «ريسيف» ، له فى كل ليلة واحدة ينام معها . فاذا حدث أن غير برنامجه فجأة ، وذهب الى حيث لم يكونوا ينتظرونه ، فقد تنتهى ليلة الغرام فى بركة من الدم ، وتموت العشيقة الخائنة والخلاسى الذى اجترأ على حريم «ناسيميانتو الكبير» ، وأحدهما بين ذراعى الآخر . وقد جاء «ناسيميانتو» الى منزل «كوسمه» فى هدوء ، من غير ما ضجيج ، يتمايل بقامته التى تقارب المترين كما يتمايل الهر البرى ؛ فنزع قبعته العريضة وصافح الجميع بابتسامة على شفتيه . واستشعر «جوان باولو» بالغ الغبطة والزهو وهو يرى رجلا فى مثل هذه الشجاعة ، ولو لم تكن سمعته كما ينبغى أن تكون ، يأتى بنفسه الى منزل صديقه «كوسمه» ليستمع الى كلامه .

ولم تكن مثل هذه الاجتماعات لتنتهى الى أى قرار ذى شأن . فللقرارات سلطة أعلى تتخذها ، أما فى منزل «كوسمه» فكان الحاضرون يكتفون بمناقشة أفضل وسائل المعركة فى منطقة السباخ . وكان العالمون ببواطن الأمور يقولون ان الأسلحة ستصل قريبا من الجنوب ، وان موعد الثورة لن يلبث أن يحدد ، فليس على « كوسمه » الا أن يعد رجاله لذلك اليوم وأن يطلع المسؤولين على عدد السواعد التى يستطيع الاعتماد عليها لساعة الشد على زناد البنادق . و«كوسمه» كان يعمل حساباته فى صمت .

١٢

لم تجد « أيدالينا » ، آخر الأمر ، بدا من الرضى بقسمتها ، والتعزى عن فقد خنزيرها ، فاستأنفت مجرى حياتها المعتاد تبيع أطباق « التابيوكا » والذرة فى سوق « آفوغادوس » ، وتغتذى بقليل من « الفيجون » وقليل من السراطين . ولكن القدر كان يعد لها ضربة جديدة .

أضاعت القرية العنيدة صديقتها «ايدالينا» ذات يوم أحد ، تشع فيه الشمس والمرح . كانت ساحة الاحتفالات الشعبية تشهد مباراة بين مغنيين ، وقد اجتمع حولهما كثير من الناس ، بعضهم ظل واقفا ، وبعضهم جلس القرفصاء على الأرض ، وآخرون اتخذوا مقاعد لهم من صفائح الزيت . وفى تلك اللحظة أقبلت «ايدالينا» ، وفوق رأسها موقد معدنى ، وعلى ذراعها حقة من الدقيق وجوز الهند المبشور أعدتهما لصنع «التابيوكا» ، فاذا «سيباستيان» ، وقد امتلأ بطنه ورأسه بأقداح الكحول ، يقفز فجأة من حلقة المتفرجين ويبدأ بالوثب والترقص من حول الزنجية وهو يصيح :

ـ بنت «ايدالينا» عاهرة محترفة . انها أجمل عاهرات شارع النار ! أمس قضيت الليل معها فى شارع النار . . .

ولم يكن الفتى قد أتم جملته حين انحط موقد النار بعنف على رأســـه ، وشرخ وجهـه من جانب الى جانب ، فسقط «سيباستيان» على الأرض وسط بحيرة من الدم تسبح فيها معه جمرات الموقد .

وظل الجميع فى ذهول مبهور أمام عنف المشهد ، لا يكادون يصدقون أن تصدر هذه الوحشية عن «ايدالينا» التى عرفوها دائما رقيقة هادئة .. وظلوا أيضا فى حيرة مما ينبغى عليهم فعاله لأن «سيباستيان» لم يكن بالفتى المحبوب ، بل كانت سيرته كلها سيرة غلظة وسفاهة ، لايعرفون له الا موهبة يديه القادرتين على حفر الرسوم الحلوة بالسكين على قشور جوز الهند ، ولـكنه كان من الـكسل بحيث لم يحاول قط أن يعيش من هذا العمل ، وكانت حياته ملتوية وموارد رزقه مبهمة . بل لقد فاجأوه ذات يوم وهو ينهب صندوق المبرات فى مطهر كنيسة «آفوغادوس»: حكاية يعرفها الجميع ، اذ كان الأب «أريستيد» يفتح الصندوق فى كل أسبوع فيجده خاويا ، برغم مايؤكده خادم الكنيسة من أنه رأى بعض التائبين يضعون صدقاتهم فيه بصورة منتظمة ، وقرر «فيريموندو» أن يستجلى حقيقة الأمر ، فكمن فى الكنيسة ليفاجىء السارق ، ونجح فى قصده : رأى «سيباستيان» ، ساعة الأصيل ، يدخل الـكنيسة خفية وتحت ابطه حزمة صغيرة من قصب السكر حتى اذا اقترب من الصندوق ، وراء أحد الأعمـدة ، أدخل فى فتحته قشارة طويلة من القصب ثم سحبها وفى طرفها قطعـة نقدية . وظل «فيريموندو» فترة لايفهم كيف تســـتطيع قشرة القصب أن تجتذب المعدن . ثم ذهب على أطراف أصابعه ينادى الأب «أريستيد» وعاد الاثنان معا فقبضـــا على «سيباستيان» متلبسا بجريمته . ولم يجدا عسرا فى اكتشاف طريقته : اذ كان يحك طرف عصاه بثمرة غنية بالعصارة الصمغية ـ هى«الجاكا»

فتلتصق القطع النقدية بهذا الصمغ فلا يلبث أن يخلو منها الصندوق . ولم يشأ الأب «أريستيد» أن يرسل «سيبباستيان» الى السجن ، مكتفيا بتوبيخه وطرده ، ولكن «فيريموندو» روى الحكاية للجميع ، ومنذ ذلك الحين هبطت سمعة «سيباستيان» فى حيه الى الحضيض . لذلك لم يكن عجبا ذلك اليوم أن ينصرف كل عطفهم الى «ايدالينا» .

ومع ذلك ، لم تواتِ أحدا منهم شجاعة الاعتراض حين جاء شرطيان ، كانا حتى تلك اللحظة يصغيان حالمين الى أهازيج المغنيين ، فاعتقلا الزنجية المجرمة . وسارت « ايدالينا » بحراستهما ، لم تودع أحدا ، بل خفضت عينيها تنهل منهما الدموع على رمال الطريق الحارة ، ورأسها المرهق يستعرض المأساة كلها ، منذ يوم زلت ابنتها فخلقت لها ضروبا من المحن .

انها لا تزال تذكر ذلك الطبيب الصغير الذى أغوى « زيفينيا » . كان قد درس فى «باهيا» ثم جاء يمارس مهنته فى مستوصف الحصن . وكان قد أعطاها مجانا بعض المقويات لتعالج بها سعالا أصاب ابنتها . وهى تذكر سلسلة الحقن التى كانت «زيفينيا» تذهب الى المستوصف ليعالجها بها ، ثم هربها مع الحقنة الثالثة عشرة ، وبقاء المستوصف بضعة أيام من غير طبيب .. ثم عودة الفتاة منتفخة العينين دامعتهما ، وأمها حيرى ضائعة ، تارة تشكر الله على أن رد اليها ابنتها ، وأخرى تلعن القدر على أن رماها بمثل هذا العار .

ولم تلبث «زيفينيا» أن ارتحلت من جديد ، ملبية دعوة الطبيب الذى انتقل الى «غارانيونس» . ثم لم يطل بها الأمر حتى وصلت منها رسائل حزينة تصفه بأقبح النعوت ، بعد أن قذف بها الى الشارع ، ولكنها تعان فى الوقت نفسه أنها لن تعود هذه المرة الى البيت ، بل ستدفع بنفسها ثمن سقطتها .. ثم

جاءت فيما بعد رسالة فيها بعض العزاء : فلقد التقت برجل مخلص ، موظف ، لم يبتعد كثيرا عن الشباب . ولكنها اتبعتها برسالة أخرى تحمل نبأ الكارثة : كان متزوجا ، وهاهى أسرته قد لحقت به .. اذ ذاك اضطرت « زيفينيا » ، لتتفادى الموت جوعا ، أن تنتقل من يد الى يد : من وكيل شركة متجول ، الى عامل فى صيدلية ، الى سائق سيارة شحن ، لتنتهى أخيرا بين كل الأيدى دون تمييز ، أيدى الرجال الذين لايتسع وقتها لاختيارهم ، وحتى لمعرفة أسمائهم . وانتقلت الى العاصمة فنزلت فى حى «سان جوزيه» ، ثم سكنت فى الدور الثانى من منزل فى شارع « روزاريو » ، وأخيرا فى شارع النار . وهى الآن هناك ، «زيفينيا»، فى ماخور ذى نوافذ خضراء ، فى نفس ذلك الشارع الذى زاره ذات يوم ، منذ سنوات غير قليلة ، بحار ألمانى توقفت باخرته فى ميناء «ريسيف» ، فحملت منه خلاسية أخرى بولد أشقر الشعر ، يدعونه «ماتيو الأحمر» ..

واجتازت «ايدالينا» جسر «آفوغادوس» ، فصعق الفتيان الذين يصطادون السمك على جانبيه اذ رأوها تسير بين اثنين من رجال الأمن ، وهى فى شرودها تدوم الذكريات القديمة فى رأسها فتمنعها حتى من التفكير فى جريمتها . وحين وصلت الى قسم الشرطة أخذوا يستجوبونها على الفور ، ولكنها كانت تكتفى بالبكاء الصامت ولا تجيب ، واذ ذاك تبرع أحد الشرطيين برواية الحادث :

ـ أحد شباب القرية قال ان ابنتها تحترف الزنى فى شارع النار ، فضربته على رأسه بموقد معدنى .

فالتفت الضابط نحو «ايدالينا» يسألها :

ـ أليس صحيحا أن ابنتك تسكن فى شارع النار ؟

ـ بلى ياسيدى ، صحيح .

ـ اذن لم حاولت قتل الرجل ، وهو يقول الحقيقة ؟

فأجابته العجوز بلهجة أشد حزما :

ـ ليست كل الحقائق مما يجوز قوله .

ثم خفضت بصرها من جديد ، ولكن الضابط اكتفى بهذا القدر من الاستجواب ، ثم أطلق سراحها ، بوحى من شعور العدالة أو من الاشفاق والحذر ، وسمح لها بالعودة مطمئنة الى بيتها .

ولكن « ايدالينا » لم تعد الى البيت . أرسلت فى طلب حفيدها وبعض حوائجها وغادرت القرية العنيدة الى الأبد ، ومنذ ذلك الحين لا يعلم أحد ما فعل الله بالزنجية « ايدالينا » .

ولم تنقض بضعة أيام حتى جاء الدور على « كوسمه » تفقده القرية . كان « تشيكو » المجذوم ينام ملء جفنيه حين سمع طرقا على بابه ، فأصابه الذعر لأنه يعلم أن أحدا لا يجرؤ على طرق بابه فى وضح النهار ، وخشى أن يكون مفتشو الصحة قد جاءوا ليأخذوه بالقوة الى المستشفى . ولذلك شق بابه قليلا فى حذر ، فاذا « جوان باولو » على عتبته يقول له بصوت راعش ، ان العجوز « توتونيا » أرسلته اليه يستدعيه على عجل ، لأن « كوسمه » قد غاب عن الوعى . وانطلق « تشيكو » يعدو ، وهو يتعثر فى حفر الطريق وعيناه نصف مغمضتين ، لأن تلك كانت أول مرة يجتاز فيها أزقة القرية العنيدة فى وضح النهار ، ولأن بصره تكاد تعشيه الشمس التى فقد اعتياده عليها .

وحين وصل الى المنزل أسرت له « توتونيا » العجوز أن « كوسمه » قد أغمى عليه ثلاث مرات خلال اليوم . فى المرة

الأولى وهنت قواه بغتة ، فسقطت من يده مرآته الصغيرة وذهبت هشيما ، واذ ذاك استرد وعيه سريعا . ولكنه فى المرتين التاليتين كان أبطأ فى العودة الى رشده . وهى تخشى أن يذهب الى الأبد اذا أصيب بنوبة أخرى .

وكان أشخاص آخرون قد اجتمعوا فى المنزل . واقترح « زيلويس » أن يذهب ليأتى بطبيب ، ولكن « كوسمه » أومأ برأسه أن لا فائدة فى ذلك ، وانه يفضل أن يموت فى هدوء كما عاش منزويا فى هدوء . وأطاعوه . وظل « كوسمه » يومين وليلة وهو بين الحياة والموت . ولم يأتوا بطبيب ، ولكنهم استدعوا « ماريا داس دوريس » ، التى أصبحت منذ رحيل « ايدالينا » تقوم بمساعدة أهل القرية على حسن استقبال الموت . وبينما كانت « توتونيا » تبكى و « ماريا » تقرأ الأدعية ، كان « تشيكو » و « جوان باولو » لا تفارق أنظارهما المريض لحظة .

وشاع خبر احتضار « كوسمه » فحج كل أهل الحى الى منزله . كان الناس منذ الصباح حتى المساء يعودون المريض متتابعين ثم يقضون بعض الوقت يتحدثون فى ظل أشجار جوز الهند ، وكلهم مفجوع يندب ، يحزنه أن يموت « كوسمه » فى وقت هم فيه أشد ما يكونون حاجة الى نصائحه وحكمته ، وفى وقت دنت فيه الساعة الحاسمة ، ساعة تحرر كل الفقراء ، تلك الساعة التى قال لهم « كوسمه » نفسه أنها أصبحت قريبة ..

قال أحدهم فى ثورة :

ـ لقد كان الوحيد المؤهل لقيادة نضالنا .

وقال صوت آخر فى لوعة :

ـ بعد « كوسمه » سنضل كلنا الطريق ، لا نعرف أين نحن ولا الى أين ، كالسراطين فى العاصفة .

وبين الحين والحين ، فى نزاعه الذى لا ينتهى، كان «كوسمه» يسترد وعيه ويهمس لأصدقائه ببضع كلمات تقطعها الحشرجة . وفى الليلة الثانية ، زفر زفرة عميقة غاب بعدها عن الوعى ، كأنما انقطعت أنفاسه فجأة ، فقالت « ماريا داس دوريس » ان ساعته حانت ، وطلبت شمعة تضعها بين يديه . ولكن المنزل كان خاليا من الشموع ، ولا شموع فى منازل الآخرين وكلهم فقراء . اذ ذاك سحبت « ماريا داس دوريس » من النار جمرة مشتعلة وضعتها بين أصابع « كوسمه » ، كيما يضيىء اللهب طريقه فى ظلمات العالم الآخر . ولكن ساعة الرحيل لم تكن قد أزفت حقا بعد ، اذ أن المحتضر فتح عينيه مرة أخرى ، فأبصر الجمرة الموضوعة بين يديه المصلبتين على صدره وفهم ما يجرى . واذ ذاك رفع بصره الى أصدقائه وقال لهم بصوت هادىء عميق :

ـ حتى فى لحظة الموت ، يظل هناك ما ينبغى لنا أن نتعلمه ..

وبعد دقائق قليلة مات .



١٣

لقد تغير « جوان باولو » كثيرا . لم يعد يضحك ولا يستنشق نسم الحياة بمثل نهمه السابق . وأضاعت القرية كل سحرها الماضى لديه بعد موت صديقه « كوسمه » وهرب العجوز « ايدالينا » التى اختفى معها « أوسكار ليندو » رفيق ألعابه . ولم تعد نظراته تضفى على المستنقع أية ألوان مرحة ، فهو لديه بعد الآن مجرد طبقة من الحمأ ، كالحة موحشة .

ولم يعد يستشعر فى اللعب لذة ، أو يحن الى الوثب بطائرته المصنوعة من الورق على ضفة النهر ، أو الى اللعب بالكرة مع فتيان المدينة الآخرين ، أو الى التعلق بمؤخرة « الترام » المتجه الى وسط المدينة ليجوب شوارعها المزدحمة بالعربات ويقف أمام واجهات مخازنها المتلئة بالسلع الغريبة والثياب الغالية ، وبكل تلك الروائح التى يحفل بها عالم بعيد عن عالمه . فلقد أصبح كل شىء لديه سواء ، وأصبح حين يكون بلا عمل يبقى ساعات فى سريره ، وعيناه مثبتتان على السقف المصنوع من القش ، ويفكر . ولا يفكر الا فى أمور محزنة : فى تعاسة الحياة ، وبؤس أهله ، والفقر والموت .

ولقد أخذ هذا الصمت الشارد المستديم يقلق أم « جوان باولو » ، فحدثت « زيلويس » بغرابة سلوك ابنهما ،

وبانحطاطه وانعزاله كأنه عجوز لم يعد يتذوق الحيـــاة . فأخـذ الأب أيضا يعنى بمراقبـــة أطوار ابنه ، وقد أصبح هو الآخـــر مشغول البال عليه .

وفى ذات صباح ، بينما كانت الأسرة تتناول فطورها ، تأكل السراطين وتشرب القهوة الخفيفة ، سأل « زيلويس » ابنه عن شأنه وعن أسباب حزنه ، وهل يكون من هذه الأسباب أنه لم يعد يحب العمل لدى الأب « اريستيد » .

وكان أمرا شاقا على « جوان باولو » أن يفسر ما يشعر به . فهو ـ على عكس ظنون أبيه ـ يحب راعى الكنيسة حقا ، ومايزال يطيب له أن يذهب بصحبته الى صيد السراطين . ولـكنه أخذ يرتبك فى جوابه ويتعلثم ، الى أن استطاع الافصاح أخيرا عن أن ما يحزنه هو أن يرى كل هذا الفقر وهذه التعاسة من حوله ، وأن يشعر أمامهما بالعجز الكامل . فأجابه أبوه ببعض التأنيب أن كل هذا لا يعنيه ، وأن عليه أن يقلع عن التفكير فى كل هذه السخافات، وهى ليست من شأن الأطفال . وصمت « جوان باولو » ، وانقطع حواره مع أبيه ، فقد أدرك أن لا جدوى من أن يحاول التعبير عما فى نفسه .

وبعد الفطور خرج « جوان باولو » فى طريقه الى منزل الأب « أريســـتيد » . ذهب ثابت الخطى ، ورأســـه منحن الى أمام ، تثقله الأفكار التى تعج فيه فلا يكاد يستطيع الانتصاب فوق عنقه الناحل . وكان يسير وعيناه مشدودتان الى الأرض ، وكأن العالم من حوله لم يعد يستحق نظرة .

وفجأة ، سمع « جوان باولو » سلسلة من الأصوات الغريبة ارتعـــدت لها فرائصه ، كأنها الرعد ينطاق قريبا منه ، تصـــحبه صفرات ، وكأن ريحا عاتية تعصف بأوراق الشجر . ولكنه نظر

الي السماء فاذا هى زرقاء صافية ، وعجب لهذه العاصفة كيف لا تحمل معها غيمة تنذر بالمطر ، فلا تمطر السماء الا هذا النور اللاهب المحرق . واستمر هزيم الأصوات العاصفة ، والرعد يقصف من كل صوب ، فى نوبات متسارعة الإيقاع . وأخذ « جوان باولو » الخوف وهو يحاول استكشاف مصدر هذه الأصوات ، التى تبدو وكأنها تنطلق من كل الاتجاهات فى وقت واحد : من جهة المدينة حينا ومن جهة « آفوغادوس » حينا آخر ، وأحيانا من جهة « البيبيريبى » على الجانب الآخر من المستنقع . وشعر « جوان باولو » برأسه يدور ، وبجسده كله تأخذه الرعشات ، فأطلق ساقيه للريح وأخذ يعدو فى خطوط متعرجة كما تفعل السراطين ، بحثا عن مصدر ذلك الضجيج العاصف . وكان فى طريقه يرى كل السكان على عتبة منازلهم ، ينظرون الى السماء فى ذعر ، كما كان يرى السراطين فى كل مكان تتخبط فى التراب على غير هدى . وسمعهم ينادونه باسمه . نادوه مرتين . ولكن أى شىء لم يعد قادرا على وقفه ، ولا كان هناك شىء يمكن أن يجتذب انتباهه ، لأن فكره كله كان يستحوذ عليه شىء واحد : هو أن يكتشف من أين تأتى العاصفة . وهو لهذا يختار معاجيل الطرق ، ويثب فوق الحواجز ، ويقطع الأراضى البراح والموات .

وفجأة ، عند جسر « آفوغادوس » ، وجد نفسه وجها لوجه أمام « العاصفة » : فمن موقفه فى أعلى المنحدر استطاع أن يرى جماعة من الأشخاص كمنوا عند جرف المستنقع ، مسلحين بالبنادق والرشاشات يطلقون منها النار فى حماس . وكانت هذه الرشاشات هى مصدر تلك الرعود الصغيرة المتتابعة ، كأنها رعد طويل قطع الى أجزاء صغيرة ، كما كانت رصاصات البنادق هى التى تصفر كأنها ريح الموت بين أوراق « المانجريف » الغليظة .

وهبط « جوان باولو » المنحـدر واختلط بالرجال . لم يكن يعرف أحدا منهم ، ولـكنه كان يشـعر أنهم من تلك العائلة التى يحبها ، عائلة أبطال المستنقع . وكان كثيرون بينهم نصف عراة ، كأنما يذهبون لاصطياد السرطان ، وقد غطت جسدهم بقع كبيرة من الطين . أولئك كانوا نفس فرسان البؤس الذين ماأكثر ماخاضوا من معارك بطولية فى خيال « جوان باولو » ، ولكن هؤلاء الشجعان لم تعد تحميهم هـذه المرة دروع الطين وحدها ، بل هم أيضـا مزودون ببنادق ورشاشات ، يعلم الله من أين حصلوا عليهـا ، وكان فى وسع « كوسمه » أن يشرح له ذلك لو كان هنا ، ولكن « كوسمه » مات . والوقت الآن على أية حال لم يعد يتسع لطرح الأسئلة ، فالعاصفة التى يثيرها هؤلاء الرجال ليست بالعاصفة المضحكة ، ولا هى كتلك الزوابع التى كان « جوان باولو » يصطنعها مع الأب « أريستيد » ليصطادا السرطان .

وأخذ « جوان باولو » يقفز فى كل الاتجاهات ، ويساعد فى تجديد حشو الرشاشات ، بينما الرجال يصوبون طلقاتهم الى صفرة ملابس الجنود التى تختلط أحيـانا مع أوراق « المـانجريف » ، على الضفة الأخرى من النهر . فاذا ما اختفت تلك البقع الصفراء الحية بين الأوراق اسـتراح الرجال وأوقفوا الضرب . واذ ذاك تسمع العاصفة نفسها مرة أخرى ترتفع رعودها من نقاط متعددة يشتد فيها وطيس المعركة .

اما فى القرية العنيدة فكان الهيـاج قد بلغ ذروته ، وأخذ الناس يدورون فى كل الاتجاهات على غير هداية . حتى «تشيكو» خرج الى عتبة كوخه ، واختلط بالآخرين وهو يصيح :

ــ انه العصيان . لقد كان « كوسمه » على صواب حين قال اننا على أبواب الثورة .

ويسأل الناس بعضهم بعضا ، ولكن أحدا منهم لا يدرى شيئا من الأمر ، وكل هذه النفوس الثائرة لم تكن تستطيع أن تصدق أن الثورة قد بدأت فعلا .

وأما فى المدينة فذعر شامل . التجار يسارعون الى اغلاق متاجرهم ، والنساء يعدن الى دورهن كالمجنونات ، وفصائل الشرطة العسكرية تتجه خببا الى النقاط « الستراتيجية » لتقمع العصيان . وفى مقاهى وسط المدينة يزعم بعض العارفين أن الأمر لا يعدو تمرد كتيبة واحدة أغراها به صغار ضباطها بالتآمر مع العمال والفلاحين الذين أصبحوا يفضلون الموت على حياة الجوع . ولكن آخرين يزعمون أن الأمر أكثر جدا ، وان الانتفاضة قد وقعت بالاتفاق مع حركات أخرى فى بقية أنحاء البلاد ، وان السفن الحربية المشتركة فى التمرد ستصل قريبا الى الميناء لتقصف بنيرانها قصر الحاكم .

ومضى النهار كله والأسلحة تزمجر من كل صوب ، دون أن تتضح جلية الأمر . وانقسمت الآراء فى القرية العنيدة . كان « جوكا » متفائلا يقول :

ـ يبدو لى أن كل شيء يسير على ما يرام ، وان هذه ستكون نهاية حكومة العصابات . وبعد ، لن تكون هذه أول مرة يطرد فيها الشعب حاكما من « قصر الأميرات » .

وأعاد الى الذاكرة أن ثوريين آخرين كانوا ، قبل بضع سنوات فحسب ، قد أجبروا على الهرب حاكما آخر :

ـ كان صاحب مصنع ، شديد الكلف بالأعياد والحفلات الراقصة . وقد غادر القصر من بابه الخلفى ، وهرب فى قارب ، بلباس النساء ، وبجمة شعر مستعار ..

فقال « زيلويس » ، وكأنه يطمئن نفسه بكلامه :

ـ المؤسف أنهم وضعوا مكانه صاحب مصنع آخر ، فظلت الأمور على سوئها . أما هذه المرة فنحن على الطريق الصحيح ، وستعطى السلطة لرجل صالح .

ولكن أم « جوان باولو » كانت أكثر تشاؤما .. قالت :

ـ لا تخدعوا أنفسكم ولا تتصوروا أن شيئا سيتغير . ضعوا أى رجل فى قصر تجدوه استحال شريرا كالآخرين . وليس يسيرا اسقاط أولئك الذين يتشبثون بأغصان السلطة . فالمعركة ستكون قاسية ، وستكون طويلة ، وستقتضى كثيرا من الصبر .

وكانت هناك فئة من المجتمعين أمام منزل « زيلويس » أظهرت استعدادها لتخطى الحاجز النارى والذهاب الى المدينة طلبا للمعلومات . ولكن جلبة النيران لم تلبث أن مالت الى التناقص ، وأخذت طلقات الرصاص تتباعد حتى انتهت الى السكون . وران فوق أشجار « المانجريف » صمت ثقيل . ولما كان المساء قد بدأ يقترب و « جوان باولو » لم يعد ، أخذ القلق يساور أمه :

ـ أين يمكن أن يكون قد ذهب ، وسط هذا كله ؟

ولكن « زيلويس » حاول أن يطمئنها ، برغم ما استشعره هو نفسه من مخاوف :

ـ انه بلا ريب عند الأب « أريستيد » .

وأخيرا لم تعد الأم تحتمل ما بها من قلق ، فقالت انها تفضل الذهاب بنفسها لترى هل هو حقا هناك ، ولكى يطمئن قلبها ، فعرض الجميع أن يرافقوها فى بحثها .

وخرجوا : الرجال فى المقدمة ، والنساء وراءهم ، والأولاد يتعلقون بثياب أمهاتهم ، و « ماريا » تسأل كل من تمر به على الطريق هل رأى « جوان باولو » . وأخيرا قالت امرأة عجوز انها ، نعم ، رأته فى الصباح ، وانه كان يعدو كالمجنون وسط الشارع . وأضافت انها نادته لتنصحه بعدم الذهاب ناحية المعركة ، ولكنه لم يعر صيحاتها أى انتباه . ثم وصلوا أخيرا الى منزل الأب « آريستيد » ، وكان محتشدا بالناس جاءوا يستطلعون الأنباء . ولكن « جوان باولو » لم يكن هناك ، بل لقد كان الراهب يظن أنه بقى فى المنزل مع أهله . واذ ذاك تعاظم الخوف فى قلب الأم فانطلقت تبكى . وقرر القادمون معها أن يقوموا بالبحث فى كل الضواحى القريبة ، وانضم اليهم الراهب ، فهو الآن يمشى فى الطليعة بينما الآخرون يمشون على خطوات وراءه فى احترام . الا « ماريا » ، فقد كانت فى جزعها تجترىء أحيانا على تقدم الراهب ، الذى لم يكن يجد ما يكفى من الكلمات لتهدئة مخاوفها :

ـ اطمئنى يا ابنتى فستعثرين على ولدك . لابد أنه هناك ، ضائع وسط كل هذه الفوضى . لقد عاش طويلا فى جوار السراطين وعشرتها الحميمة ، فأخذت روحه الغضة تنطبع بسمات هذه البهائم الصغيرة . ولابد أنه اليوم ، حين سمع العاصفة ، قد جن جنونه كما تفعل السراطين . ولكن العاصفة هدأت ، فاهدئى أنت يا امرأة ، فستعثرين على ولدك .

وبينما هم على الطريق مر بهم رجال مسلحون بالبنادق ، وأيديهم يغطيها التراب ، فحدثوهم عن فشل الثورة : « لقد خانونا .. لقد سحقونا .. » ، ثم تابعوا مسيرهم العاجل دون أن يدروا الى أين يذهبون وانتهوا بالاختفاء فى ظلال « المانجريف » .

وقريبا من جسر « آفوغادوس » قال صاحب دكان الراهب انه رأى الطفل فى الصباح نفسه يعدو فى اتجاه الجسر ، فاتجهوا

جميعا الى تلك الناحية ، ورافقهم صاحب الدكان واخذ يدلهم اين جرى القسم الرئيسى من المعركة ، كما شهده من نافذة بيته . وهبطوا المنحدر ، ولكن نظراتهم الجازعة رأت المد وقد ارتفعت مياهه حتى غطت طين الجرف وشجيراته . وقال صاحب الدكان يشرح الموقعة :

– من هنـــا كان الثائرون يطلقون النار . كانوا فى وســط أشجار « المانجريف » هذه التى يغمرها المـــاء الآن . أما الجنود فكانوا قد انقسموا فريقين : بعضهم يطلق النار من أعلى الجسر ، وبعضهم من وراء الأشجار على ضفة النهر الثانية . ولقد رأيت بعينى ، من منزلى ، اثنين فى لباسهما الأصفر يرفعان يديهما من خلال الأشجار قبل أن يغوصا فى الوحل . هناك ، بالضبط .

وأشار الرجل بأصبعه الى نقطة كان يميزها وحده ، فكان كمن يتحدث عن مجردات ، لأن أحدا لم ير شيئا . لم يروا الا مياه المد وهى تزمجر ضد دعائم الجسر وتلعق الضفاف فتفتتها . فاذا وقع موتى فى معركة الصباح ــ كما يقول الرجل ــ فلا ريب انهم الآن يرقدون على انخفاض أمتار عديدة عن سطح الماء . فكيف اذن يستطيع الباحثون ان يأملوا بالعثور على جثة « جوان باولو » الصغير ؟

وتساءلت الأم :

ــ رباه ، ماذا نستطيع أن نفعل ؟

فأجابها صاحب الدكان :

ــ أن تفتشوا تحت الماء .

فسألته الأم ، وقد جفت شفتاها وتعلقت عيناها بالتيار :

ــ ولكن أين ؟ وبأية وسيلة ؟

واذ ذاك أجابها الأب « اريستيد » ، فى لهجة مطمئنة :

ـ هنا ، فى هذه الجوانب ، حيث دارت المعركة .

ولما كان « تشيكو » يحمل دائما معه مجداف قاربه ، فقد أخذ يسبر به غور النهر ، وهو يغوص فى الماء حتى ركبتيه . فكان المجداف ينغرس تارة فى الوحل ، وتارة يصطدم بجذع شجرة . وفى كل مرة يقف فيها عند عائق ما كان الجميع يرتعشون ويتساءلون . ولكن « تشيكو » كان سريعا الى التفسير :

ـ لا ، انه جذر « مانجريف » . أما هذه المرة فانها حجرة ، أعرف ذلك من رنة الصدمة .

على أن هذا البحث لم يأت بأية نتيجة ، ولذلك اقترحت « ماريا داس دوريس » أن يؤتى بشمعة مضاءة فتترك لتعوم وشأنها على الماء :

ـ توضع الشمعة فى صدفة أو فى علبة فارغة ، ثم توضع على النهر ، ويسلم الانسان أمره الى العناية الربانية . واذ ذاك تتجه الشمعة على خط مستقيم الى المكان الذى غرق فيه الجسد ، وتقف من تلقاء ذاتها فوق الميت .

وأظهروا جميعهم اعجابهم بالفكرة ، الا الأب « أريستيد » فقد كان فى شزرة شفتيه ما يوحى بأنه لا يؤمن بمثل هذه الأساليب ، ولكنه لم يقابلها باعتراض صريح فاتفق الآخرون على تنفيذها .

وبينما كانت بقية نور الشمس تنطفىء فى السماء ، كانت شعل صغيرة تبدأ بالعوم على وجه النهر المتموج . تلك كانت الشموع ، تحملها أصداف أو قوارب صنعت من ورق صحف قديمة أتى به صاحب البقالة . وكانت هناك نصف دستة من هذه الزوارق الغريبة تعوم وتتفرق على هوى الأمواج ، وقد

ابتعد اثنان منهما فورا عن الشاطىء وحملهما التيار ، بينما ظلت الأخريات فى محاذاة الضفة ، تسير بطيئة فى اتجاه البحر ، مع بدء عودة المياه الى الانخفاض . ولكن الشمعة التى قذفتها « ماريا داس دوريس » بيدها الخبيرة ، وبحركة احتفالية يملؤها الايمان المكين ، دارت دورتين ثم توقفت فجأة ، لسبب مجهول . واذ ذاك صاحت « ماريا » فى اهتياج :

ــ لابد أنه هنا .. ابحثوا هنا .

وأمسك « تشيكو » بمجدافه ، وكان الموضع عميقا فاختفى المجداف كله تقريبا ، على طوله . ولكن طرفه اصطدم بمقاومة طرية ، تدعو الى الشبهة . فارتعش « تشيكو » ، ونزع « زيلويس » قميصه وغطس ، ثم صعد بعد حين وهو يجر الى الشاطىء جثة رجل ، مثقوب الصدر منتفخ الوجه ، وقد التهمت الأسماك شفتيه فكشفت عن أسنانه ، كأنما كان يضحك من الموت .

وضاعف هذا الاكتشاف من ايمان الجميع بما للشموع من قدرة عجائبية ، فأخذوا يلاحقون كل القوارب الصغيرة التى تتجه مع التيار . ولكن هبة ريح مفاجئة قلبت اثنين منها فأغرقت شعلتهما ، بينما بلغت الأخريات دعائم الجسر واستمرت فى وجهتها دونما دلالة . وهكذا بقى سر مصير الطفل مجهولا . وتضاعف الجزع حين اتضح أن البحث أصبح بلا جدوى . وقال الأب « أريستيد » :

ــ يجب أن نعود الى منازلنا لنستريح من عناء هذا اليوم الرهيب . كلنا فى حاجة الى بعض النوم . وغدا ، مع انحسار الجزر وفى ضوء النهار ، سيكون التفتيش أيسر . تشجعوا ، يا أبنائى ، ولتكن مشيئة الله .

ودون أى جواب ، سار الجميع على طريق العودة . ولكن « ماريا » ظلت لا تتحرك وهى تحدق صامتة بالمياه السوداء ،

فاجتذبها « زيلويس » فى حنان ، فانقادت اليه ، وصعدا الجرف معا وانصرفا دون أن يلتفتا الى وراء .

وذاع نبأ اختفاء « جوان باولو » سريعا فى الحى كله ، فحزن له الناس حزنهم على فشل الثورة . وجاء الجيران يزورون أسرة « زيلويس » ، وبعضهم قضى الليل كله هناك ليسهر الى جانب جسد الطفل الغائب ، الذى كانوا كلهم يتصورون أنه أصبح بعيدا فى ملكوت السموات ، ولكنهم يمسكون عن الكلام حتى لا يزيدوا حزن أهله . وكان بعضهم يكتفى باشارة تعزية من يده كأنما يريد أن يقول : « هذه حال الدنيا .. » ، ثم يرخى ذراعيه الى جانبه ، بينما تبكى « ماريا » فى صمت ، ويطرق « زيلويس » ضاغطا على شفتيه .

وما طلع الفجر حتى خرجوا الى البحث من جديد . وكان الجزر قد كشف عن مساحات عريضة من الطين الأسود ، بحيث لم يكن هناك شيء أشبه بصيد السراطين من بحثهم عن جثة طفل ميت . ولما أشرقت الشمس ظهرت فصيلة من الحرس مكلفة بجمع جثث القتلى ، فعثرت على عدد منهم على كل من ضفتى النهر ، ثوارا وجنودا على السواء صرعتهم طلقات النار ، بعضهم التهمت نصف جسده السراطين والأسماك ، وبعضهم لاتزال أصابعه متشنجة على بندقيته .

واستمر التفتيش طوال النهار ، فلم يظهر جسد « جوان باولو » حتى بعد انصراف الحرس . وظل « زيلويس » و « ماريا » ينقبان بين أدغال الجرف فى جزع محموم الى أن حان الغروب . ثم لم يكفا وقد أضناهما التعب الا حين عادت المياه ترتفع وتغرق مرة أخرى كل شيء : أشجار « المانجريف » ، والطين ، وآخر ما كان لهما من رجاء فى العثور على جسد ابنهما ، فأقنعهما رفاقهما

بالعودة الى البيت ، واذ ذاك تشكل موكب جنائزى يجتاز المستنقع ، لا وراء جثمان الميت ، بل وراء أبويه الثاكلين .

وكانت الشمس قد غربت حين بلغوا منطقة الأكواخ ، ووجوههم المتعبة تستقبل آخر أشعتها فتبدو كأنما دمغت بالنار . و « زيلويس » يدهق فكره ويعذبه ، وقد جحظت عيناه وجف حلقه ، على أمل لا سبيل اليه : هو أن يكتشف لماذا مات ولده . أتراه أفرط فى الكلف باصطناع الزوابع مع الأب « أريستيد » ؟ أتكون سراطين « الغوايامو » ، التى تفقد رشدها أمام العاصفة ، قد أعطته القدوة السيئة ؟ أم تراها عاصفة الأفكار التى أطلقها « كوسمه » فى دماغ طفله ؟

لم يبق هناك ، بعد الآن ، أحد يستطيع معونة « زيلويس » . وها هو ذا الليل يهبط تدريجيا على السبخات فيمحو معها سيماء وجهه المتصلد الذى يذكر بوجوه أشرار العصابات . وعلى مشهد المستنقع كله يمتد ستار من ظلال . والليل يرخى سدوله على ضحايا الثورة الخائبة . وفى مكان ما ، بين تلك الجثث الضائعة تحت أشجار « المانجريف » ، يرقد « جوان باولو » ليغذى بلحم جسده المتفسخ الطين الذى سيغذى السراطين ، فيعود الى الاغتذاء بلحمها سكان المستنقع .

وزارة الثقافة
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٩٦٧

الثمن ٢٠